نبذة عن الدولة الغزنوية وفتح الهند

اهتم الخلفاء الراشدون بفتح بلاد الهند؛ فبعثوا منذ عهد عمر بن الخطاب عدة حملات على أطراف هذه البلاد، غير أن الفتح المنظم بدأ في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، حيث قام عامله على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي بهذه المهمة العظيمة، فأعد حملة عسكرية وجهزها بما يكفل لها النجاح من عدة وعتاد، وأسند قيادتها إلى واحد من أكفأ القادة وأمهرهم هو ابن أخيه محمد بن القاسم، وكان دون العشرين من عمره، فنهض بهذه المهمة على خير وجه، وتمكن من التوغل في بلاد الهند، وفتح مدينة "ديبل" وأقام بها مسجدا، وترك بها حامية من أربعة آلاف جندي، وأصبحت ديبل أول مدينة عربية في الهند.

وهذه المدينة كان موقعها قريبا من "كراتشي" لكنها اندرست ولم يعد لها وجود الآن، وواصل القائد المظفر حملته الناجحة في شمال الهند، وهو ينتقل من نصر إلى نصر، وأهالي البلاد تقبل عليه؛ فرحًا به لسماحته وحسن سياسته، وتعدّه محررَها من ظلم الهندوس واستعبادهم.

غير أن هذا الحلم الجميل بدا يتحطم ويتبدد؛ فقد توفي الحجاج الثقفي صاحب اليد البيضاء في هذا الفتح، ومن بعده الخليفة الوليد بن عبد الملك، وتولى العراق حاكم جديد، فأوقف الفتح وعزل محمد بن القاسم عن ولاية السند.

وظلت السند تابعة للدولة الأموية ومن بعدها الدولة العباسية، وحافظ المسلمون على ما فتحوه، وتوسعوا قليلا في ضم أجزاء أخرى إلى دولتهم، حتى سيطر المسلمون على المنطقة الواقعة بين كابل وكشمير والملتان.

قيام الدولة الغزنوية

كانت "غزنة" بأفغانستان ولاية نائية، تخضع للدولة السامانية التي تحكم خراسان وما وراء النهر، ويقوم عليها ولاة من قِبلها، وشاءت الأقدار أن يلي غزنة سنة (٣٦٦هـ= ٩٧٦م) والٍ يسمى "سبكتكين" كان يتمتع بهمة عالية وكفاءة نادرة، وطموح عظيم، فنجح في أن يبسط نفوذه على البلاد المجاورة، وشرع في غزو أطراف الهند، وسيطر

على كثير من المعاقل والحصون هناك، حتى تمكن من تأسيس دولة كبيرة في جنوبي غرب آسيا، وتوفي سنة (٣٨٧هـ=٩٩٧م).

ولاية محمود بن سبكتكين

بعد موت سبكتكين خلفه ابنه إسماعيل، بعد أن عهد إليه أبوه بالملك من بعده، غير أن أخاه الأكبر محمود -وكان سند والده في غزواته وحروبه- رفض أن يقر لأخيه بالملك لضعفه وسوء تدبيره، فنهض عليه واستطاع بعد سبعة أشهر أن ينتزع الملك لنفسه، ويقبض على زمام الأمور، وبدأ عهد جديد لم تشهده المنطقة من قبل، فلم يكد يستقر الأمر له، حتى بدأ نشاطًا واسعًا في الفتوح، وأثبت أنه واحد من كبار الفاتحين في تاريخ الإسلام، حتى قيل إن فتوحه تعدل في المساحة فتوح عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قضى محمود الغزنوي الفترة الأولى من حكمه في تثبيت أركان دولته، وتوسيع رقعتها على حساب الدولة السامانية التي دبّ الضعف في أوصالها، فرأى الفرصة سانحة للقضاء عليها، وتم له ذلك في (جمادى الأولى ٣٨٩هـ= إبريل ٩٩٩م) بعد انتصاره على عبد الملك بن نوح الساماني في موقعة حاسمة عند مرو، وأصبحت خراسان خاضعة له، ثم تصدى للدولة البويهية، وانتزع منها الري وبلاد الجبل وقزوين.

فتح الهند

بعد أن استقرت الأحول لمحمود الغزنوي واستتب له الحكم، وأقرته الخلافة العباسية على ما تحت يده من بلاد، تطلّع إلى بسط سيطرته على بلاد الهند، ومد نفوذه إليها ونشر الإسلام بين أهلها؛ ولذلك تعددت حملاته على الهند حتى بلغت أكثر من سبع عشر حملة، وظل يحارب دون فتور نحوًا من سبع وعشرين سنة، بدأت من عام (٣٩٠هـ= ١٠٠٠م)، حيث قاد حملته الأولى على رأس عشرة آلاف مقاتل، والتقى عند مدينة بشاور بجيش "جيبال" أحد ملوك الهندوس، وحقق نصر غاليا، ووقع الملك الهندي في الأسر، الذي لم يستطع أن يتحمل هزيمته والعار الذي لحق به، فأقدم على حرق نفسه، بعدما أطلق الغزنوي سراحه مقابل فدية كبيرة.

ثم تعددت حملات الغزنوي، وفي كل مرة كان يحقق نصرا، ويضيف إلى دولته رقعة جديدة، ويبشر بالإسلام بين أهالي المناطق المفتوحة، ويغنم غنائم عظيمة، حتى

توج فتوحاته في الهند بفتح بلاد "الكجرات"، ثم توجه إلى مدينة "سومنات" سنة (٤١٦هـ= ١٠٢٥م) وكان بها معبد من أكبر معابد الهند، يحوي صنما اسمه "سومنات" وكان الهندوس يعظمونه ويحملون إليه كل نفيس، ويغدقون الأموال على سدنته، وكانت مدينة سومنات تقع في أقصى جنوب الكجرات على شاطئ بحر العرب، فقطع الغزنوي الصحاري المهلكة حتى بلغها، واقتحم المعبد، وهزم الجموع الغفيرة التي حاولت إنقاذ المعبد، ووقع آلاف الهندوس قتلى، وسقط المعبد في أيدي المسلمين.

وغنم الغزنوي أموالا عظيمة قُدرت بنحو عشرين مليون دينار، وعاد إلى غزنة سنة (٤١٧هـ=١٠٢٦م) وظلت ذكرى هدم معبد سومنات عالقة في ذاكرة الهندوس لم يمحها كرّ السنين، ولا تغيرها الأحول، حتى إذا ما ظفرت الهند باستقلالها عمدت إلى بناء هذا المعبد من جديد في احتفال مهيب.

ولم يكن الغزنوي مدفوعا في فتوحاته برغبة جامحة في كسب الغنائم أو تحقيق مجد يذكره له التاريخ، ولكن قاده حماسه لنشر الإسلام، وإبلاغ كلمة التوحيد في مجتمع وثني، وكانت تلك الحملات مسبوقة بطلب الدخول في الإسلام، وإلى هذا أشار السير "توماس أرنولد" في كتابه "الدعوة إلى الإسلام" بقوله: وفي الحق أن الإسلام قد عُرض في الغالب على الكفار من الهندوس قبل أن يفاجئهم المسلمون.

وكانت حصيلة جهود محمود الغزنوي أن أتمّ فتح شمال شبة القارة الهندية، ففتح إقليم كابلستان، وملتان، وكشمير، وأخضع البنجاب، ونشر الإسلام في ربوع الهند، وفتح طريقا سلكه من جاء بعده.

وقد نظر المؤرخون المسلمون إلى أعماله نظر إعجاب وتقدير، فقد بلغ بفتوحاته إلى "حيث لم تبلغه في الإسلام راية، ولم تُتل به قط سورة ولا آية، وأقام بدلا من بيوت الأصنام مساجد الإسلام".

النهضة الحضارية والثقافية

اكتسب الغزنوي مكانته في التاريخ بفتوحاته التي لم تُسبق، وبجهوده الحضارية التي يشغله عنها فتوحاته وغزواته، وكان العزنوي نفسه مولعا بعلم الحديث، يستمع إلى علمائه كما كان فقيها له مؤلفات، ولا يكاد يسمع بعالمٍ له مكانة حتى يستدعيه إلى دولته، فاستقدم "أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني" المتوفى سنة (٤٤٠هـ= ١٠٤٩م)

الذي نبغ في علوم كثيرة، في مقدمتها الرياضة والفلك، وعُدّ من أعظم رجال الحضارة الإسلامية، وتُرجمت كتبه إلى اللغات الأوروبية، وأطلقت روسيا اسمه على جامعة أنشأتها حديثا.

وعني السلطان بالشعر وكان له به شغف، ومن أشهر الشعراء الذين ازدانت بهم دولته الشاعر الفارسي "عنصري" وكان نديما للسلطان وشاعرا له، منحه لقب "ملك الشعراء" في مملكته، و"المسجدي"، و"الفرخي" وهو شاعر فارس عظيم قيل فيه: إن الفرخي لدى الفرس بمثابة المتنبي لدى العرب.

أما أبرز الشعراء في هذا العصر فهو "الفردوسي" صاحب "الشاهنامة" التي نظمها في خمسة وعشرين عاما من الجهد والإبداع، وتشمل أخبار الفرس القدامى، وهي من عيون الأدب العالمي.

ومن أبرز كتّاب الدولة ومؤرخيها "أبو الفتح البستي" وكان كاتبا للسلطان وموضع سره ومستشاره في كثير من الأمور، وله شعر رائق ونظم جيد، و"أبو نصر محمد بن عبد الجبار العتبي" مؤرخ الدولة الغزنوية وكاتب السلطان مع أبي الفتح البستي، له كتاب "اليميني" نسبة إلى يمين الدولة، لقب السلطان محمود الغزنوي، تناول فيه تاريخ الدولة الغزنوية.

وأصبحت غزنة في عهد السلطان محمود منارة للعلم ومقصدا للعلماء، وغدت عامرة بالمساجد والقصور والأبنية التي لا تقل بهاءً وجمالا عن المنشآت الهندية التي اشتهرت بدقة التصميم وجمال العمارة.

وفاة الغزنوي

ظل السلطان محمود الغزنوي يواصل جهاده حتى مرض، وطال به مرضه نحو سنتين، ومع ذلك لم يحتجب عن الناس أو يمنعه المرض من مباشرة أمور رعيته حتى توفي قاعدًا في (٢٣ من شهر ربيع الأول ٤٢١هـ= ٢٩ من أبريل ١٠٣٠م) بعد أن أنشأ دولة واسعة، ضمّت معظم إيران وبلاد ما وراء النهر وشمال الهند كله، ونشر دينًا لا يزال له أتباع كثيرون في الهند.

ترجمة المؤلف
أبو النصر العتبي
مؤرخ السلطان محمود الغزنوي

اسمه ونسبه:

هو أبو النصر محمد بن عبد الجبار العتبي، يرجع تاريخ أسرته إلى عتبة بن غزوان من أعيان البصرة، لكن أحد أجداده كان قد ارتحل إلى مدينة الرّي في فترة ما.

حياته:

مهما حاولنا معرفة شيوخ العتبي، فإننا لا نجد لهم ذكرا لا عنده، ولا عند من ترجم له، ولم يرد شيء عن تعليمه، خاصة وأنه قد فارق وطنه الرّي في إقتبال شبابه إلى نيسابور ثم قدم خراسان للعمل كما يفهم من قول الثعالبي، فعاش عند خاله كالولد العزيز عند الوالد الشقيق.

وكان خاله أبا النصر العتبي من كبار عمال الدولة السامانية وفضلائهم، وعمل معه إلى أن مضى إلى سبيله، وتنقلت به الأحوال والأسفار في الكتابة لبعض الأمراء، منهم الأمير أبو علي المنظفر بن سيمجور (ت٣٨٦ أو٣٨٧هـ)، ثم اختاره الأمير سبكتكين كاتبًا له مع أبي الفتح البستي وبقي حتى عهد محمود، وتولى لفترة قصيرة منصب النيابة بخراسان للأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير.

وفي أواخر حياته تولى منصب صاحب البريد في كنج رستاق، غير أن هذا المنصب لم يدم طويلا بسبب سوء علاقته مع عاملها أبا الحسن البغوي، فهجاه في رسالة قاسية اللهجة شديدة الوقع على سامعها، لأنه اتهمه بالخيانة وحرّض عليه الأمراء، وكتب هذه الرسالة بأسلوب أدبي رفيع يدل على تمكنه في اللغة والبلاغة.

كان العتبي شافعي المذهب، وكان صديقًا حميمًا ومخلصًا لأبي الفتح البستي الذي عمل معه في ديوان الإنشاء للأمير سبكتكين، ومدحه البستي في أبيات منها:

كلام لأبي النصر ... موفي واجب النحل

فما أدرى جنى النخل ... أتاني أم جنى النحل

وكان العتبي على علاقة ودية بأبي الطيب الصعلوكي (ت ٤٠٤هـ-١٠١٣م) وهو من كبار فقهاء الشافعية، وأيضا بالمؤرخ أبي منصور الثعالبي (ت٤٢٩هـ-١٠٣٨م).

موهبته:

وكان العتبي يتمتع بموهبة أدبية عالية، وإنتاج غزير شعرًا ونثرًا، ولكن الزمن لم يحفظ له إلا بعض القطع الأدبية النثرية، وأبيات شعرية، والفضل الأول يعود لصديقه الثعالبي الذي ذكرها في كتابه اليتيمة.

مؤلفاته:

أما كتبه لم يصل لنا منها إلا تاريخه «اليميني » ولأهمية هذا الكتاب واعتناء العلماء به شرحه أحمد بن علي بن عمر المنيني (ت ١١٧٢ هـ) في مجلدين، وأسماه "الفتح الوهبي في شرح تاريخ أبي نصر العتبي ".

وذكر الثعالبي أنه كتب كتابًا اسمه "لطائف الكتاب" وكتاب "شذور النصر من كلام أبي النصر".

وفاته:

إختلف المؤرخون في سنة وفاته، ولكنه أمر غريب إذ لا يذكره الثعالبي وهو أول من كتب عنه وكان معاصرًا له، وابن الأثير كان قد أخذ من كتاب اليميني ولم يذكر سنة وفاته والاختلاف يعود إلى أن العتبي ذكر آخر سنة في كتابه سنة (٤١١هـ/١٠٢٢م)، فذكر الصّفدي أنه توفي في هذه السّنة، أمّا بروكلمان فيرجح سنة (٤٢٧هـ/١٠٣٦م)، بينما حاجي خليفة فحدد تاريخ وفاته سنة (٤٣١هـ/١٠٤٠م).

مصادر الترجمة:

١- أبو منصور الثعالبي: يتيمة الدهر،ج.٤

٢- الصفدي:الوافي بالوفيات،ج.٣

٣- البغدادي: هدية العارفين.

٤- السمعاني: الأنساب،ج٣.

وصف النسخ الخطية

لقد اعتمدنا في تحقيقنا لهذا الكتاب على نسختين خطيتين:

١- النسخة الأولى: وهي نسخة رائعة من المكتبة السليمانية باسطنبول محفوظة برقم (٣١٨٩) وهي تقع في (٢٢٤) لوحة ويقع في الصفحة (١٥) سطرا، ومما يميزها أن الكلمات مضبوطة بالشكل. وقد كتب على أولى صفحاتها (تاريخ العتبي). وقد رمزنا لها بالرمز (أ).

وقد قام بنسخها محمد المروزي سنة خمسن وستمائة.

٢- النسخة الثانية: هي نسخة محفوظة في الأزهرية برقم (٣١٧٥٤٤)، وهي تقع في (٢٥٦) لوحة، وفي الصفحة (١٧) سطرًا، وهي نسخة جيدة كتبت فيها العناوين بالمداد الأحمر. وقد رمزنا لها بالرمز (ز).

وقد قام بنسخها محمد بن إبراهيم بن صالح سنة ست وأربعين ومائة وألف.

وجاء على طرة المخطوط: كتاب شرح أخبار السلطان يمين الدولة وأمين الملة أبي القاسم محمود بن سبكتين، ومدح مقاماته في عديده وأنصاره، وما يتصل بهما من أخبار ولاة الأطراف في جواره، مما جمعه أبو النصر محمد بن عبد الجبار العُتبي معجز الكتاب ومحرز الآداب، نور الله تعالى حفرته وبيّض غرته بمنه وكرمه.

وتبدأ النسختين: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الظاهر بآياته، الباطن بذاته، القريب برحمته، البعيد بعزّته، الكريم بآلائه، العظيم بكبريائه.

وتختتم النسختين: فمن قرأ هذه الفصول، فليحمد الله عليّ السلامة من مثلها، والبراءة من فوادح الأوزار، وقوادح النار بها، وليعلم أن الإساءة تعقب على مرور الأيام عباً ثقيلا، وغبّا وبيلا، وخطبا جليلا، ولسانا كالحسام صقيلا. وقبّح الله من نقص عمره على زيادة الآثام، ومساءة الأنام، وحيازة الملام، ويرحم الله عبدا قال: آمينا.

عملنا في الكتاب

سار عملنا في الكتاب وفق المنهج التالي:

١- نسخ المخطوط نسخا علميا دقيقا من النسخة (أ).

٢- مطابقة النص ومراجعته على النسخة (ز).

٣- ضبط الشواهد الشعرية ضبطا كاملا بالشكل.

٤- تخريج الآيات القرآنية وفق مواضعها من المصحف الشريف.

٥- التعليق على المواضع التي تحتاج زيادة إيضاح، أو بسط مسألة، أو بيان مشكل.

٦- عزو الشواهد الشعرية إلى مصادرها.

٧- ترقيم النص حسب قواعد الترقيم الحديثة.

٨- صنع مقدمة حول الدولة الغزنوية ودور السلطان محمود الغزنوي في فتوحات الهند.

٩- صنع ترجمة وافية للمؤلف أبي النصر العتبي.

١٠- عمل فهارس تفصيلية لأبواب الكتاب.

وأخيرًا فهذا هو جهد المقل، والمرجو ممن يطلع على كتابنا فيجد فيه عيبًا أن يبادرنا بالنصيحة، والتصويب، فكل معرض للخطأ، ولا كمال إلا لله سبحانه وتعالى.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

المحقق

صور النسخة (أ)

صور النسخة (أ)

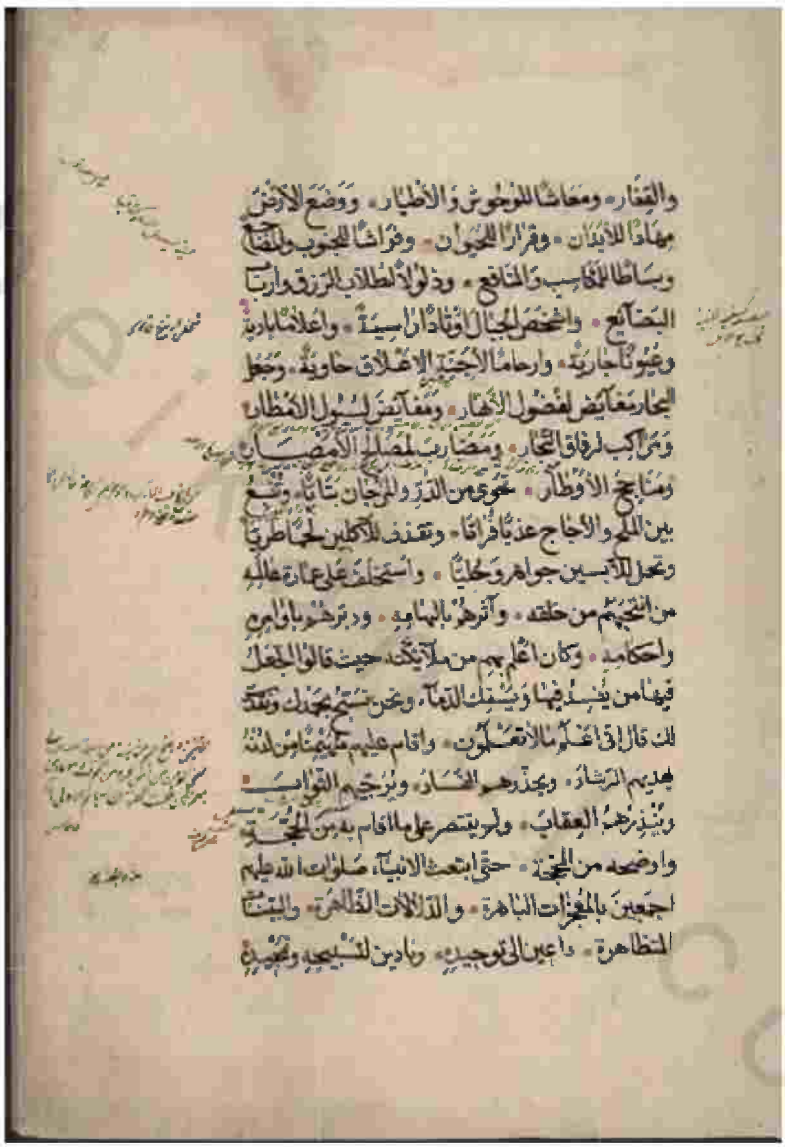

والقفار، ومعاشا للوحوش والأطيار، ووضع الأرض
مهادا للأبدان، وقرارا للحيوان، وفراشا للجنوب والمضاجع
وبساطا للمكاسب والمنافع، وذلولا لطلاب الرزق وأرباب
البضائع، وأشخص الجبال أوتادا راسية، وأعلاما بادية
وعيونا جارية، وأرحاما للأجنة والأعلاق حاوية، وجعل
البحار مغايض لفضول الأنهار، ومفايض لسيول الأمطار
ومراكب لرفاق التجار، ومضارب لمصالح الأمصار
ومناجح الأوطار، تحوي من الدر والمرجان نثارا، وتجمع
بين الملح والأجاج عذبا فراتا، وتقذف للآكلين لحما طريا
وتحمل للابسين جواهر وحليا، واستخلف على عمارة عالمه
من انتجبهم من خلقه، وآثرهم بالهامه، ودبرهم بأوامره
وأحكامه، وكان أعلمهم من ملائكته حيث قالوا أتجعل
فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس
لك قال إني أعلم ما لا تعلمون، وأقام عليهم قيما من لدنه
يهديهم الرشاد، ويحذرهم الفساد، ويرجيهم الثواب
وينذرهم العقاب، ولم يقتصر على ما أقام به من الحجة
وأوضحه من المحجة، حتى ابتعث الأنبياء صلوات الله عليهم
أجمعين بالمعجزات الباهرة، والدلالات القاهرة، والبينات
الظاهرة، داعين إلى توحيده، وهادين لتسبيحه وتمجيده

صور النسخة (أ)

صور النسخة (ز)

هذا تاريخ اليميني
كتاب
شرح أخبار السلطان يمين الدولة وأمين الملة أبي القاسم
محمود بن سبكتكين وشرح مقاماته في علائه
وما يتصل بها من أخبار ولاة الأطراف
في جواره مما جمعه أبو النصر محمد بن عبد الجبار
العتبي منجز الكتاب ومحرز الآداب
نور الله تعالى حفرته
وبيض غرته
بمنه وكرمه
آمين

صور النسخة (ز)

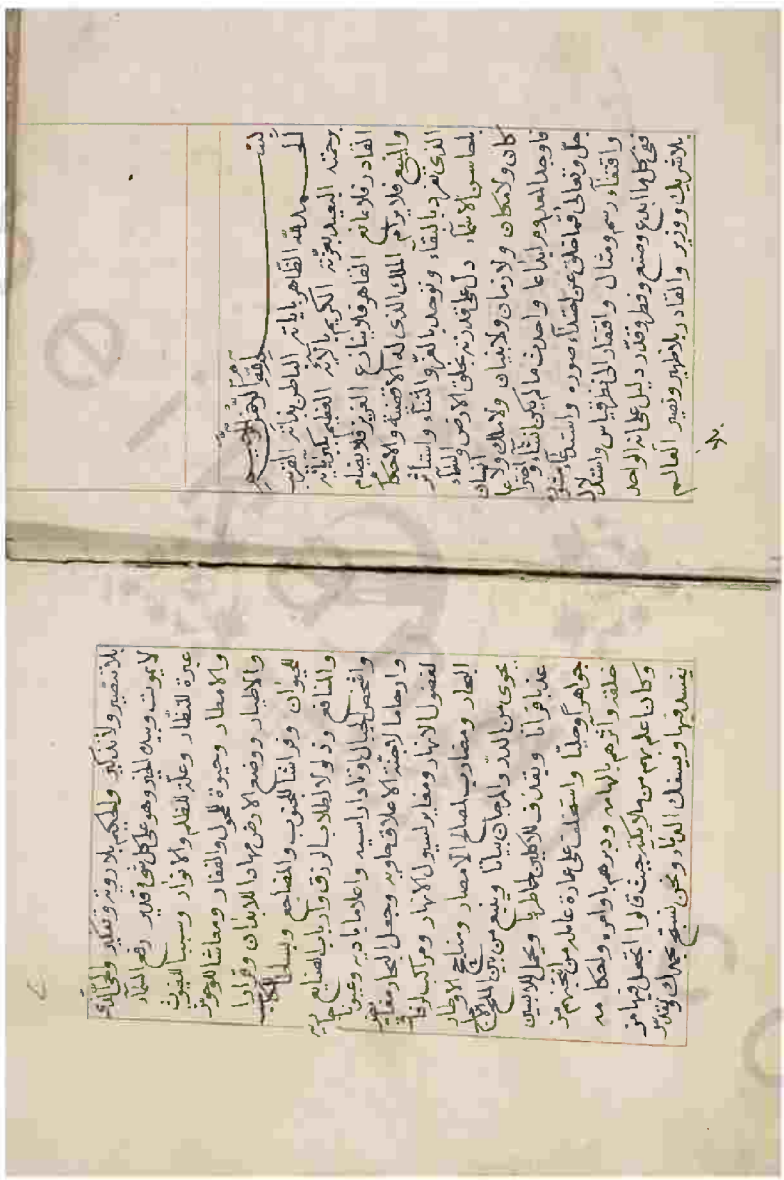

صور النسخة (ز)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الظاهر بآياته، الباطن بذاته، القريب برحمته، البعيد بعزّته، الكريم بآلائه، العظيم بكبريائه. القادر فلا يمانع، والقاهر فلا ينازع، والعزيز فلا يضام، والمنيع فلا يرام، والمليك الذي له الأقضية والأحكام. الذي تفرّد بالبقاء، وتوحّد بالعزّ والسّناء، واستأثر بأحاسن الأسماء، ودلّ على قدرته بخلق الأرض والسماء. كان ولا مكان ولا زمان، ولا بنيان ولا ملك ولا إنسان، فأوجد المعدوم إبداعا، وأنشأ ما لم يكن إنشاء واختراعا، جلّ وتعالى فيما خلق عن احتذاء صورة، واستدعاء مشورة واقتفاء رسم ومثال، وافتقار إلى نظر قياس واستدلال، ففي كل ما أبدع وصنع، وفطر وقدّر، دليل على أنه الواحد بلا شريك ووزير، والقادر بلا ظهير ونصير، والعالم بلا تبصير وتذكير، والحكيم بلا رؤية وتفكير، والحي الذي لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

رفع السماء عبرة للنظّار، وعلّة للظلم والأنوار، وسببا للغيوث والأمطار، وحياة للمحول والقفار، ومعاشا للوحوش والأطيار. ووضع الأرض مهادا للأبدان، وقرارا للحيوان، وفراشا للجنوب والمضاجع، وبساطا للمكاسب والمنافع، وذلولا لطلّاب الرزق وأرباب البضائع. وأشخص الجبال أوتادا راسية، وأعلاما بادية، وعيونا جارية، وأرحاما لأجنّة الأعلاق حاوية. وجعل البحار مغائض لفضول الأنهار، ومغائر لسيول الأمطار، ومراكب لرفاق التجّار، ومضارب لمصالح الأمصار، ومناجح الأوطار. تحوي من الدرّ والمرجان نباتا، وتنبع من الملح الأجاج عذبا فراتا، وتقذف للآكلين لحما طريا، وتحمل للّابسين جواهر وحليا.

واستخلف على عمارة عالمه من انتخبهم من خلقه، وآثرهم بإلهامه، ودبّرهم بأوامره وأحكامه. وكان أعلم بهم من ملائكته حيث قالوا: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٣٠].

وأقام عليهم مهيمنا من لدنه يهديهم الرشاد، ويحذرهم الفساد، ويرجيهم الثواب، وينذرهم العقاب. ولم يقتصر على ما أقامه به من الحجّة، وأوضحه من المحجّة، حتى انبعث الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، بالمعجزات الباهرة، والدّلالات الزاهرة، والبيّنات المتظاهرة، داعين إلى توحيده، ونادبين لتسبيحه وتمجيده، فأزاح بهم العلّة، وأزال الشبهة، وأفاد سكون النفس، ونفى خلاج الشكوك واللبس. ولم يزل يستخلف من يشاء من خليقته موسومين بسنن الأنبياء، ومثل من قام بعدهم على مناهجهم من الولاة والأمراء، حتى انتهت نوبة الخلق إلى زمن النبي المصطفى، الأمين المجتبى، الأبطحي المرتضى، محمد صلى الله عليه وعلى آله، فأرسله بِالْحَقِّ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَداعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً وجعل أمته به أفضل الأمم، وكلمتهم أعدل الكلم، وملّتهم أوسط الملل، وقبلتهم أسدّ القبل، وسنّتهم أقوم السنن، وكتابهم أشرف الكتب.

ووعدهم أن يكونوا يوم العدل، والقضاء الفصل، شهداء على من يظهر الجحود، وينكر الواحد المعبود. قال تعالى وهو أصدق القائلين، وأحكم الحاكمين: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣] فنسخت بشريعته الشرائع، وبصنيعته الصنائع، وبدليله الأدلّة، وببدره الأقمار والأهلّة، وانتشرت نبوءته مسداة بالخلاص، ملحّمة بالإخلاص، معلّمة بالتمام، مطرّزة بالدوام، على تعاقب الليالي والأيام، لم يفرط فيها من شيء يقتضي تاما، ويستدعي رؤبة ولحاما قال الله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣] فأطلق على الدين لفظ الكمال، لاستقامته على غاية الاعتدال، وانتفائه عن عوارض النقص والاختلال، إلى أن قبضه الله جلّ ذكره إليه مشكور السعي والأثر، ممدوح النصر والظفر، مرضي السمع والبصر، محمود العيان والخبر، فاستخلف في أمته الثقلين: كتاب الله وعترته اللذين يحميان الأقدام أن تزلّ، والأحلام أن تضلّ، والقلوب أن تمرض، والشكوك أن تعترض، فمن تمسك بهما، فقد أمن من العثار، وربح اليسار، ومن صدف عنهما فقد أساء الاختيار، وركب الخسار، وارتدف الإدبار ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة:١٦] فصلى الله عليه وعلى آله ما انبلج عن الليل الصباح، واقترن العزّ بأطراف الرماح، ونادى المنادي بحيّ على الفلاح، صلاة تكافىء

حسن بلائه، وتضاهي سابق غنائه، وتقضي فرض طاعته، وتقتضي فرض شفاعته، وسلم تسليما.

وبعد:

فإن الملك والدين توأمان. فالدين أسّ، والملك حارس، وما لا حارس له فضائع، وما لا أس له فمهدوم. والسلطان ظل الله تعالى في أرضه وخليفته على خلقه، وأمينه على رعاية حقه. به تتم السياسة، وعليه تستقيم الخاصة والعامة، وبهيبته ترتفع الحوادث والفتن، وبإيالته تنحسم المخاوف والمحن. ولولاه لا نحلّ النظام، وتساوى الخاص والعام، وشمل الهرج والمرج، وعمّ الاضطراب والهيج، واشرأبّت النفوس إلى ما في طبائعها من التّباغي والتّنابز، والتّفاضل والتّمايز، حتى يشغلهم ذلك عما يصلحهم معاشا ومعادا، ويقيم أودهم يوما وغدا، وإلى هذا المعنى يلتفت قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ما يزع السلطان، أكثر مما يزع القرآن»، إذ كان أكثر الناس يرون ظاهر السياسات فيردعهم خوف المعاقبة، وحذر المؤاخذة عن تنكّب الجدد، والعدول عن السّمت والمقتصد. ومن لنا بمن يستقرىء آي كتاب الله تعالى بفكره، ويتدبرها بعقله، ويجعل لنفسه منها زماما يهديه إلى الأصلح، ويثنيه عن الأقبح، فيكون مؤدب نفسه ومقوّم ذاته، ورائض أخلاقه وعاداته.

ومعنى حديث عمر رضي الله عنه منتزع من قوله تعالى: ﴿ لأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ ﴾ [الحشر:١٣]، فموضوع السيف للعامة، ومجموع القرآن للخاصة، وإن كان الجميع في معانيه مشتركا، وبأوامره ونواهيه مرتبطا ومشتبكا، غير أن العامي يرى السيف فيرتدع، والخاصي يرى الحق فيتّبع، وشتّان ما بين مدبّر ومسخّر بغيره، ومؤدّب ومهذّب بنور ربه.

وقد كان يختلج في صدري معنى قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحشر:٢٥]، لجمعه بين الكتاب والميزان والحديد على تنافر ظاهرها من المناسبة، وبعدها قبل الرؤية والاستنباط عن جواز المشاكلة والمجانسة، وسألت عنه عدة من أعيان العلماء المعروفين بالتفسير، والمشهورين من بينهم بالتذكير، فلم أحصل منهم على جواب يزيح

العلّة، ويشفي الصدر وينقع الغلّة، حتى أعملت التفكر، وأنعمت التدبر، فوجدت الكتاب قانون الشريعة، ودستور الأحكام الدينية، يبين سبل المراشد، ويفصّل جمل الفرائض، ويرتهن مصالح الأبدان والنفوس، ويتضمن جوامع الأحكام والحدود، وقد حظر فيه التعادي والتظالم، ورفض التباغي والتخاصم، وأمر بالتناصف والتعادل، في اقتسام الأرزاق المخرجة لهم بين رجع السماء وصدع الأرض، ليكون ما يصل منها إلى أهل الخطاب، بحسب الاستحقاق بالتكسّب، دون التغلّب والتوثّب، واحتاجوا في استدامة حياتهم بأقواتهم مع النّصفة المندوب إليها إلى استعمال آلة للعدل يقع بها التعامل، ويعمّ معها التساوي والتعادل، فألهمهم الله اتخاذ الآلة التي هي الميزان، فيما يأخذونه ويعطونه لئلا يتظالموا بمخالفته فيتهالكوا به، إذ لم يكن ينتظم لهم عيش مع سوغ ظلم البعض منهم للبعض.

ويدل على هذا المعنى قوله جلّ ذكره: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن:٧-٩]، وذلك أنه تعالى جعل السماء علة للأرزاق والأقوات، من أنواع الحبوب والنبات، فكان ما يخرج منها من أغذية العباد ومرافق حياتهم، مضطرا إلى أن يكون اقتسامه بينهم على الإنصاف، دون الجزاف، ولم يكن يتم ذلك إلا بهذه الآية المذكورة، فنبّه الله على موضع الفائدة فيه، والعائدة به، بتكرير ذكره ومعانيه، فكان ما تقدّم ذكره معنى الكتاب والميزان.

ثم إنه من المعلوم أن الكتاب الجامع للأوامر الإلهية، والآلة الموضوعة للتعامل بالسويّة، إنما يحفظ العام على اتباعهما، ويضطر العالم إلى التزام أحكامهما بالسيف الذي هو حجة الله تعالى على من جحد وعند، ونزع عن صفقة الجماعة اليد، وهو بارق سطوته، وشهاب نقمته، وجذوة عقابه، وعذبة عذابه، فهذا السيف هو الحديد، الذي وصفه الله بالبأس الشديد، فجمع بالقول الوجيز معاني كثيرة الشعوب، متدانية الجنوب، محكمة المطالع، مقوّمة المبادىء والمقاطع، فظهر بهذا التأويل معنى الآية، وبان أن السلطان خليفة الله في أرضه على خلقه، وأمينه على رعاية حقه، بما قلده من سيفه، ومكّن له في أرضه، وأحق الولاة بأن يكون شريفا نبيها، وعند الله تعالى كريما وجيها، من كانت عنايته بنصرة الدين، وحماية بيضة الإسلام والمسلمين، أوفر وأوفى،

ومجاهدته لأعداء الله المارقين عن شرائعه، الماردين دون حدوده وفرائضه، بنفسه وماله، ورهطه ورجاله أشرح للصدور وأشفى.

وقد علم أبناء البدو والحضر، وأنشاء المدر والوبر، من حيث مدّ الصبح جناحيه إلى أن ضمهما للوقوع في أفق الغرب، أن راية الإسلام لم تظلّ على سلطان أحسن دينا، وأصدق يقينا، وأوسع علما، وأوقع حلما، وأسدّ سيرة، وأخلص سريرة، وأتم وفاء، وأعم سخاء، وأوفر حياء، وأغنى غناء، وأعظم قدرا، وأفخم ذكرا، وأمدّ باعا، وأشدّ امتناعا، وأجلّ جلالة، وأكمل عدّة وآلة، وأرفع ملكا وسلطانا، وأطوع أنصارا وأعوانا، وأروع سيفا وسنانا، وأحمى للإسلام وذويه، وأنفى للشرك ومنتحليه، وأعدى للباطل ومن يليه، اكتسابا ووراثة وطباعا واستفادة، من الأمير السيد الملك المؤيد يمين الدولة وأمين الملة، أبي القاسم محمود بن ناصر الدين أبي منصور سبكتكين ملك الشرق بجنبيه، والصدر من العالم ويديه، لانتظام الإقليم الرابع وما يليه من ثالث الأقاليم وخامسها في حوزة ملكه، وحصول ممالكها الفسيحة، وولاياتها العريضة، في قبضة ملكه، ومصير أمرائها، وذوي الألقاب الملوكية من عظمائها، تحت حمايته وجبايته، واستدرائهم من آفات الزمان بظل ولايته ورعايته، وإذعان ملوك الأرض على بعدهم لعزته، وارتياعهم من فائض هيبته، واحتراسهم على تقاذف الديار، وتحاجز الأنجاد والأغوار، من فاجيء ركضته، واستخفاء الهند والروم تحت جيوبها عند ذكره، واقشعرارهم لهب الرياح من أرضه.

وقد كان- أدام الله دولته- منذ لفظه المهد، وجفاه الرضاع، وانحلّت من لسانه عقدة الكلام، واستغنى عن الإشارة بالإفهام، مشغول اللسان بالذكر والقرآن، مشغوف النفس بالسيف والسنان، ممدود الهمّة إلى معالي الأمور، معقود الأمنية بسياسة الجمهور.

لعبه مع الأتراب جدّ، وجدّه مستكدّ، يألم لما لا يعلم حتى يقتله خبرا، ويحزن لما يحزن حتى يدمّثه قسرا وقهرا.

وكان الأمير الماضي - أنار الله برهانه- يرى الدنيا بعينه ويسمع بأذنه، وينطق بلسانه، ويستحلي مذاق العيش به، ويستطيب روح الهواء بقربه، ويستفتح مغالق الأمور

بيمنه، ويستحمد عواقب الخطوب باسمه. ولم يزل بين سحره ونحره، إلى أن استنزلته رؤية البلوغ، وبصيرة الإدراك عن حجره.

ولم ينفك يتدرج بين ألطافه وكراماته، وولاياته وإقطاعاته، من رتبة إلى أخرى أعلى منها مكانا وأرفع شأنا، إلى أن ولي قيادة الجيوش والعساكر بخراسان، وهي الرتبة التي طالما تناحر عليها كباش الرجال، وقروم الأبطال، فلم يحظ بها إلا العدد اليسير الذين سار ذكرهم في الآفاق، وتسامع بهم رجالات خراسان والعراق، سناء وقدرا، ودهاء ونكرا، ومهابة وحشمة، ونباهة ونعمة. هذا على طراءة سنّه، ونضارة غصنه، وعنفوان أمره، وريعان شبابه وعمره كما قال الكميت[1]:

قاد الجيوش لخمس عشرة حجة ولداته إذ ذاك في أشغال

قعدت بهم همّاتهم وسمت به همم الملوك وسورة الأبطال

وهلمّ جرّا إلى أن ملك خراسان بأسرها وزاولستان عن آخرها، وبلاد نيم روز بحذافيرها، وجبال الغور على حصانتها، ودوّخ السند فاستباحها، وغزا الملتان فاجتاحها، وتوغّل الهند عودا على بدء فنكأ جراحها، وأذلّ لقاحها، وجاس مغانيها ورباعها، وافتتح صياصيها وقلاعها. وأقام عن بيوت الأصنام، مساجد الإسلام، وعن مشاهد البهتان، معاهد التوحيد والإيمان، فصارت الأبطال تهدّد في بطالاتها بإقدامه، وتفزع بإقبال ألويته وأعلامه، فظل أندپالهم وچيبالهم، وكماتهم وأبطالهم، كما قال أشجع السّلمي[2]:

وعلى عدوك يا ابن عمّ محمد رصدان ضوء الصّبح والإظلام

---

(١) هو: الكميت بن زيد بن الأخنس الأسديّ، ويكنى أبا المستهلّ: كوفيّ مقدَّم، عالمٌ بلغات العرب وبأيّامها؛ وهوشاعرُ الهاشميّين، وكان خطيبًا، فارسًا، شُجاعًا؛ وكان شديد التّكلُّف للشّعر، كثير السّرقة له.

يُنظر ترجمته في: الشّعر والشّعراء ٣٨٥، والأغاني ١٧/٣ - ٤٤، والمؤتلف والمختلف٢٥٧، ومعجم الشّعراء ٢٣٧، ٢٣٨، والخزانة ١/١٤٤.

وهذا الشعر من قصيدة للكميت يمدح بها مخلد بن يزيد بن المهلب. انظر: الأغاني ١٦/٤٤١.

(٢) هو أشجع بن عمرو من بني سليم، وكان متصلاً بالبرامكة، وله فيهم أشعار كثيرة.

ينظر ترجمته في: الشعر والشعراء ١/١٩٥، ونهاية الأرب ٣/٨٢.

وهذا الشعر من قصيدة من الكامل يمدح بها الرشيد. انظر: الخزانة ١/٢٩٣.

فـــاذا تنبّـــه رعتـــه وإذا هـــدا   ســـلّت عليـــه ســـيوفك الأحـــلام

وحاز الله له من البسطة في الحلم والعلم، والهيبة بالاسم والجسم، والظفر بأحابيش الأعداء في وقائع يعز صبر النفوس على أمثالها، وتكاد الأرض تمور من أهوالها، ما لم يسمع بمثله حيز لأحد من الملوك إلا عن أساطير الأولين، أريد بها التطويل والتهويل، والتعجيب والتغريب، دون الحقيقة التي يشهد بها العيان، ويقوم عليها البيان والبرهان، فلو نشرت صحائف الدول الإسلامية، وأيام الملة الحنيفية، لكانت دولته غرة تلك الدول، ومساعيه فيها طراز تلك الحلل، إذ لم يقتن أحد من سلف الملوك من غرر المآثر، وزهر المناقب والمفاخر، ما اقتناه هو بنفسه، وأبيه، وآثاره ومساعيه.

ولما حاز الله له كرائم الخصال، ووفّاه طبع المكيال، في معاني الكمال: سياسة أزرت بأردشير في زمانه، والمنصور في سلطانه، وهيبة خفتت لها جنادب الليالي النائمة، وخمدت عليها عيون الأراقم العارمة، وعدلا ضم بين الضدّين حتى النار إلى الماء، وألّف بين الذئاب الطّلس والشاء، فكفيت الأنياب شبا الأطراف، والقرون صلابة الأجواف. وكانت أيامه مشغولة بمرّ السياسة، عن ثمر الدراسة، وبفرض السيادة، عن نفل الاستفادة.

لطف الله له بأولاد كالنجوم الزواهر، بل الليوث الخوادر، بل السيوف البواتر، بل العقبان الكواسر، من لم ترمق الألحاظ أشخاصا توازيهم فخامة وجلالا، ووسامة وجمالا، وسعادة وإقبالا، وسماحة وإفضالا، وعلوما وآدابا، ولفظا وكتابا، وحفظا وحسابا، وأخلاقا مرّة وعذابا. نعم، وصرامة ومضاء، وشجاعة وإباء، وسيادة وعلاء، ونجابة ورئاسة، وجلالة ونفاسة، وإيالة وسياسة، وأسامة وحراسة، وفروسية وفراسة، فجمع الله له تمام السعادة، وقصر عليه أدوات السيادة.

وقيّض الشيخ الجليل شمس الكفاة أبا القاسم أحمد بن الحسن لوزارته، وتدبير أمور مملكته، من ذخره الله لزمان صادف فترة من أحرار الرجال، وأبناء الفعال، فلم يطبع مثله على غراره، ولم يضبع شرواه في مضماره، سجاحة شيم، ورجاحة كرم، وسماحة كف، وفصاحة قلم، وهمّة ترى الدنيا هباءة بين أخواتها الثائرة، بل نقطة

موهومة من نقط الدائرة. وغدت سدّته ميقاتا للفضل وأهليه، وسوقا للأدب ومنتحليه، تجلب إليها بضاعات الفضائل بين منظوم ومنثور، ومختوم ومنشور.

وقد صنّف طبقات الأدباء والكتاب تصانيف في ذكر أيامهم، وتصاريف أحوال الزمان بهم، بحسب قوتهم في البيان، وسهمتهم من بلاغة الخاطر والبنان، حتى أن أبا إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي عمل كتابه المعروف بـ(التاجي في أخبار الديلم)، موشّى بحبر ألفاظه الساحرة، ومغشى بحلل معانيه الزاهرة، فحلّ عقد البيان بما قيّده، وبيّض وجه البلاغة بما سودّه، فإن تكن دولة تقتضي إثبات محاسنها بالتخليد، وتقييد مآثرها بالتأبيد، فهذه هي التي تقتضي الأدباء أن يخلّدوا بتقرير معاليها كلامهم، ويحلّوا بتحرير مساعيها أقلامهم، ولو أدركها الماضون من أرباب التصانيف لودّوا لو كانت ألفاظهم عن غيرها معزولة، وإلى ذكر محاسنها منقولة، ولحدّثتهم أنفسهم بأن يعتذروا اعتذار أبي نواس[1] بقوله[2]: [الطويل]

إِذا نَحــنُ أَثنَينـا عَلَيــكَ بِصـالِحٍ فَأَنـتَ كَما نُثني وَفَـوقَ الَّـذي نُثني
وَإِن جَـرَتِ الأَلفـاظُ يومًـا بِمِدحَـةٍ لِغَيـرِكَ إِنسـاناً فَأَنـتَ الَّـذي نَعنـي

(١) أبو نواس: هو أبو علي الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن الصباح الحكمي -بفتح الحاء والكاف- نسبة إلى الحكم بن سعد العشيرة. ولد بالبصرة سنة خمس وأربعين ومائة، وسمي أبو نواس لذؤابتين كانتا له تنوسان على عاتقه -والذؤابة- بهمزة بعد الذال المضمومة- الضفيرة من الشعر، ومات ببغداد سنة خمس وستين ومائة. حبيب: هو حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس بن الأشج أبو تمام الطائي. ولد في جاسم بدمشق سنة تسعين ومائة وقيل: غير ذلك، ونشأ بمصر، ومات سنة اثنتين وثلاثين بعد المائتين.

قال محمد بن داود الجراح: كان أبو نواس من أجود الناس بديهةً، وأرقهم حاشية، لسناً بالشعر يقوله في كل حال، والرديء من شعره ما حفظ عنه في سكره.

قال الجاحظ: لا أعرف بعد بشار مولداً أشعر من أبي نواس، وقال الأصمعي: ما أروي لأحد من أهل الزمان ما أرويه لأبي نواس.

(٢) انظر: شرح ديوان المتنبي (١/١١٢) ولباب الآداب للثعالبي (١/٥٣) وزهر الآداب وثمر الألباب (١/٣٩٠) وتحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر (١/١٣١) والكشكول (١/١٢٦) والجليس الصالح والأنيس الناصح (١/١٥٢) والمستطرف في كل فن مستظرف (١/٢٣٤) وتاج العروس (١/٦٤١٨) والإعجاز والإيجاز (١/٢٧).

وقد كنت أقدّر أن بعض صنائع هذه الدولة ممن له حظ في الصناعة، وتوجّه في طرق البراعة، يرتاح لتقييد أخبارها، وجمع كتاب في تصاريف أحوالها وأطوارها، من لدن قام الأمير الماضي- أنار الله برهانه- أميرًا، إلى أن أجلى أبا علي محمد بن محمد ابن إبراهيم بن سيمجور عن خراسان كسيرًا، وحصله من بعد في يده أسيرًا، وولي أمورها سياسة وتدبيرًا، وما قدّر له في أثناء ذلك كله من إغاثة الأمير الرضا أبي القاسم نوح بن منصور ونصرته، واستجابة ما لطف إليه من دعوته، والمدافعة عن بيته وخطّته، واستبقاء ما فضل عن ذئاب الترك من ولايته، وكفّهم بترغيبه وترهيبه عن إزالة حشمته، واستباحة ما سلم عليه من نعمته، محافظة على حقوق سلفه الأولى طالما صنعوا الصنائع، وأودعوا الودائع، وبثوا العوارف والرغائب، وأنفقوا الأموال حتى كنزوا المحامد، وعرفوا للحرمات أقدارها، وحفظوا على البيوتات أستارها، وقضوا لنفوس المنقطعين إليهم أو طارها، إلى أن ورث السلطان المؤيد يمين الدولة وأمين الملّة مكانه.

فخلفه في ترتيب الأمور، وتدبير الجمهور، وتألّف الإخوة والأقارب، واستمالة القلوب ببذل الرغائب، إلى أن استقل به سرير الملك مطاعا، وتناهضت ولاة الأطراف إلى بيعته سراعا، فوجدتهم قد عوّلوا في معانيها على ما سار في أكناف الحضرة من أشعار الفارسية لازدحام شعرائها على بابه الرفيع، بقصائدهم التي قد غبروا بها في ديباجة الروذكي، وصنعة الخسروي والدقيقي. ولعمري أنها كافية شافية، ومن وراء الإشباع والإقناع آتية، ولكنها دواجن خراسان، لا تعرف عن ديارها ارتحالا، ولا تألف غير أقطارها مجالا، فاقتضاني حكم ما أسلفته في هذا البيت الرفيع من خدمة، وتعرفته أيام الأمير الماضي قدّس الله روحه من بركة اصطناع ونعمة، ثم ما رسمه إليّ الأمير أبو أحمد محمد بن يمين الدولة وأمين الملة أن أمتّع أهل العراق بكتاب في هذا الباب، عربي اللسان، كتّابي البيان، يتخذونه سميرا على السهر، وأنيسًا في المقام والسفر، ويعرفون به عجائب آيات الله تعالى في تبديل الأبدال، وتقليب الأمور من حال إلى حال، مبتدئا بذكر الأمير الماضي، أكرم الله مآبه، من حيث نشأت نبعته، وتفرعت دوحته، إلى أن استعان به الأمير أبو القاسم نوح بن منصور- برّد الله مضجعه- في تلافي دولته، والانتقام له من أبي علي بن سيمجور، حين نزع يده من طاعته، واستجره بحفي

مسألته، عن دار إقامته، لكفاية مادهاه من أمره وأمر من طابقهم من الترك على جفوته، وأطمعهم برسائله ووسائله في تورّد مملكته، وما جرى على يده من الفتوح المأثورة، والمقامات المشهورة، ومتبعا ذلك بلواحق من وقائع السلطان الأجلّ، يمين الدولة وأمين الملّة في الهند والترك والخلج، وما أتيح له فيها من النصر والفلج، وما يتصل بها من أخباره، وأخبار ولاة الأطراف في جواره، والله ولي المعونة على درك المنشود، وإصابة الغرض المقصود.

obeikandi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر أيام الأمير الماضي أبي منصور سبكتكين وأحواله

قد كان ذلك الأمير قدّس الله روحه في جبلته أبيّ النفس، حمي الأنف، جرىء القلب، قوي البطش، كريم الخيم، رضي التدبير، كبير الهمّة، كثير الحكمة. يتبيّن ذلك كله في خصاله وخلاله، ومتصرّفات عزائمه وأحواله.

وحكى لي أبو الحسين جعفر بن محمد الخازن أنه كان ورد بخارى أيام الأمير السّديد منصور بن نوح في جملة أبي إسحاق بن ألبتكين، صاحب جيوش خراسان، وهو إذ ذاك حاجبه الكبير، ووجهه الغرير، وعليه مدار أموره، وبيده مناظم شؤونه.

وعرفه أركان تلك الدولة بشهامته وغنائه، وصرامته ومضائه. وتوسموا فيه الارتفاع إلى اليفاع، بهمّته وذكائه. فحين صرف أبو إسحاق إلى غزنة واليا عليها، وسادّا مسدّ أبيه بها، انصرف هو بانصرافه، على جملته في زعامة رجاله، ومراعاة ما وراء بابه. فلم يلبث أبو إسحاق بعد معاودته إياها أن قضى نحبه، وودع عمره. ولم يبق من قرابته وبطانته، من يصلح لمحله ومكانته، واضطر العدد الدّهم من مواليه وموالي أبيه إلى من يتولى زعامتهم، ويتكفّل بحسن الإيالة خاصتهم وعامتهم، فلم ينفكوا مختلفين في الاختيار، وساخطين غبّ الاختبار، إلى أن جمعت كلمتهم على تأميره، واتفقت آراؤهم على الرضا بتدبيره، والإذعان لحكم تقديمه وتقديره. فماسحوه بأيمانهم طائعين، وحالفوه بأيمانهم مبايعين، فولي أمورهم برأي صليب، وحزم عجيب، واهتمام سديد، وقيام بمصالحهم حميد.

ولم يزل يركض بهم على أطراف الهند غازيا، مجاهدا أعداء الله الكفرة بها ومفتتحا قلاعها، ومستخلصا ديارها ورباعها، ومحكما سيوفه في أهلها، مؤمّنا من أسلم وشهد، وقاتلا من أشرك وجحد. وجرت بينه وبين عساكر الهند حين عيوا بأمره، وتضافروا على مدافعته، واستكفاف عاديته، حروب لبس فيها جلد النمر، وأرّث نارها تأريث المتذمر، وعضّ في معاناتها على جذم التصبّر، وجافى الجنب عن الضجعة، وأقنع النفس بالطوى

والمخمصة، وأفضى تحته مركب الحميّة، وحثّ أصحابه ورفقاءه على لذة الأمنية أو راحة المنيّة، كأنما عناه عمرو بن الإطنابة الأنصاري[١] بقوله[٢]: [الوافر]

أَبَتْ لي عِفَّتِي وأَبَى بَلائي ... وأَخْذِي الحَمْدَ بالثَّمَنِ الرَّبِيحِ
وإجشامي على المَكْرُوهِ نفسي ... وضربي هامَةَ البَطَلِ المُشِيحِ
وقَوْلي كُلَّما جَشأَتْ وجاشَتْ ... مَكانَكِ تُحْمَدِي أو تَسْتَرِيحِي

وحكى لي رحمه الله في غمار ما كان يذكره من مواقفه ومقاماته، وآثاره في العدوّ ونكاياته: إني واقعتهم في بعض وقائعهم بهؤلاء الرفقاء، ونحن في العدد اليسير، وهم في الجم الغفير، وطالت بنا وبهم ممارسة الحروب حتى أقوى الناس من الزاد، وعجزوا عن الامتيار والاستمداد. ولم يكن أمامنا إلا السيوف القواضب، ووراءنا إلا المهامه والسّباسب، فصرخوا إليّ بما دهاهم، وسألوني حيلة الثبات على ما عراهم، فعرّفتهم أني كنت استصحبت لخاصّتي على سبيل الاستظهار صدرا من السّويق، وهو الآن قسمة بيني وبينكم عدلا سواء، بالغا ما بلغ بقدر الكفاية، إلى أن يمنّ الله بالفرج، وكشف هذا الضيق والحرج. فكنت أجدح لهم أياما عدّة، لكل منهم أولا، ولنفسي من بعدهم آخرا قعبا صغيرا، فنجتزىء به طول النهار والليل، ونحن على ذلك بين معالجة المكروه، ومكابدة المحذور، وملاقاة السيوف والسهام، بحرّ الوجوه والصدور، إلى أن وهب الله النصر وأهب الظفر، وأحاق سوء العذاب بمن كفر، فولّوا الأدبار بين قتيل مزمّل، وجريح مرمّل، وعقير مرهق، وأسير بالقدّ موثق.

وسمعته يذكر ما كان من حسن تدبيره وتقديره عند إفضاء الأمر إليه، واقتصار الإمارة عليه، ورزاحة حاله عن التوسّع في الإنفاق، والتخوّف في البذل والإطلاق، وأنه

---

(١) عمرو بن الإطنابة: هو عمرو بن عامر بن زيد مناة، الكعبي الخزرجي. شاعر جاهلي فارس. كان أشرف الخزرج.

اشتهر بنسبته إلى أمه (الإطنابة) بنت شهاب، من بني القين.

وفي الرواة من يعدّه من ملوك العرب في الجاهلية. كانت إقامته بالمدينة. وكان على رأس الخزرج في حرب لها مع الأوس.

(٢) انظر الكامل: (٤/ ٦٨) ط. دار الفكر العربي- القاهرة- تحقيق أبو الفضل إبراهيم، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: (٢/ ٢٨٦)، وشرح شواهد المغني: (٢/ ٤٦)، وأوضح المسالك: (٣/ ١٨٠).

كان كأحد رفقائه في الحال والمال. واحتاج مع ذلك إلى أن يأخذ لمؤونة الزعامة عليهم من نفقاته الراتبة، فكان يدّخر منها ما يفي بضيافتهم في الأسبوع دفعة أو دفعتين.

ولم يزل على هذه الجملة إلى أن اتسعت حاله، فزادهم بحسب الزيادة، إلى أن استكمل أسباب السيادة، فكان كما قيل[1]: [الرجز]

نَفْسٌ عِصَامٍ سَوَّدَتْ عِصَامَا وَعَلَّمَتْهُ الكَرَّ وَالإِقْدَامَا

ولم يلبث أن اتسعت رقعة ولايته، وعظم حجم جريدته، وعمرت أرض خزانته، وأشفقت النفوس من هيبته، وتعلّقت الأطماع بمعونته.

وكان من أجدى فتوحه ناحية بست، وسبب ذلك أن پايتوز كان قد ملكها على طغان- أحد الأمراء كان بها- غصبا، وأجلاه عنها حربا ونهبا، فلجأ هو إلى الأمير الماضي مستظهرا به، ومستنفرا إياه عليه، بمال يضمنه، وولد يرهنه، وطاعة يبذلها، وخدمة بالنفس والمال عند الحاجة يلتزمها. فلبّى نداءه، وحقق بفضله رجاءه، وناهض خصمه بمعظم جيوشه، حتى أناخ بباب بست. وبرز پايتوز إلى معسكره، فتناوشا القتال كأشدّ ما يكون، نفحا بالصفاح، ومشقا بالرماح، وإثخانا بالجراح.

فلما اضطرب الفريقان، والتقت حلقتا البطان، حمل الأمير الماضى من قلب عسكره حملة كشفتهم عن مقامهم، وأغصت شوارع البلد بزحامهم. ودارك عليهم الحملات من كل أوب، حتى جلوا عنها مفلولين، وتفرقوا في متون الهضاب، وبطون الأودية والشعاب مخذولين، واستقر طغان بها شاكرًا إحسانه، وموجبًا تحقيق ما أوجب عليه ضمانه، وبذل به رهنه ولسانه، وهو يتميل في ذلك سرا بين وعد وإخلاف، ويترجح بين وفاق وخلاف، حتى إذا حان حين الأداء، طالبه الأمير بالوفاء، وأغلظ عليه

---

(١) البيت للنابغة الذبياني ديوانه: (١٥٨).

هو:زياد بن معاوية، ويكنى أبا أُمامة: شاعرجاهليّ، من الطبقةالأولى،كانت تُضرب له قُبّة بسوق عكاظ؛ فتقصده الشّعراء فتَعرض عليه أشعارها؛ مات في الجاهليّة.

يُنظر: طبقات فحول الشّعراء ١/٥١، والشّعر والشّعراء ٨٣، والخزانة٢/١٣٥، والأعلام ٣/٥٤.

قال البيت في عصام بن شهير وهو حاجب الملك النعمان بن المنذر، يضرب فيمن يَنْبه من غير قديم له، ومنه جاءت كلمة: عصاميّ.

انظر: فصل المقال (١٣٧ – ١٣٨) وجمهرة العسكري (٢/ ٣١٢) والميداني (٢/ ١٩٢) والمستقصى (١/٣١٩) واللسان (عصم) والعقد (٣/ ٩٣) وثمار القلوب (١/١٣٦) والوسيط (١٧٢، ١٥٨).

في الاقتضاء، لما رآه من فرط الإباء والالتواء، وهما على صحراء غاصّة بغلمانهما وأتباعهما، فحدّثته عجرفية الطبع بالمنع، ولم يرض بالقول، حتى انتضى سيفه وضرب يد الأمير ضربة أوسعت جرحها، فلما تبيّن غدره، ضرب بيده إلى سيفه، وهي تشخب دما، فضرب منكبه ضربة انتصفت له منه، وطلبه بأخرى، فحجزه عنها اختلاط الفريقين، وأهاب الأمير إلى رفقائه، وغلمان داره بطرد الغواة وحطمهم، وتبييض تلك النواحي من سوادهم، وتحمير تلك التربة من دماء أجسادهم، فلم يبلغ النهار إلا وبست له صافية، وأطرافها عن ذوي الخلاف خالية، وبشعار دولته حالية، وامتدّ پايتوز وطغان، إلى نواحي كرمان وسجستان، ولم يحلم أحد منهما بأن يلتفت وراءه، فضلا عن أن يتمنى لقاءه.

وكان من جملة ما استفاده ذلك الأمير، من صفايا ذلك الفتح أبو الفتح علي بن محمد البستي الكاتب[1] صاحب التجنيس رحمه الله، فإنه كان كاتبا لپايتوز، فلما استمرت به الكشفة، أعيته صحبته، فتخلّف عنه، ودلّ الأمير عليه، فاستحضره ومنّاه، واعتمده لما كان قبل معتمدا له، إذ كان محتاجا إلى مثله في آلته وكفايته، ومعرفته وهدايته وحنكته ودرايته.

وحدثني أبو الفتح رحمه الله، قال: لمّا استخدمني الأمير الماضي، وأحلّني محل الثقة الأمين عنده في مهمات شأنه، وأسرار ديوانه، وكان پايتوز بعد حيا، وحسّادي يلوون ألسنتهم بالقدح فيّ، والجرح لموضع الثقة بي ليّا، أشفقت لقرب العهد بالاختيار،

---

(١) أبو الفتح البستي (٠٠٠ - ٤٠٠ هـ = ٠٠٠ - ١٠١٠ م) علي بن محمد بن الحسين بن يوسف بن محمد بن عبد العزيز البستي، أبو الفتح: شاعر عصره وكاتبه.

ولد في بست (قرب سجستان) وإليها نسبته.

وكان من كتاب الدولة السامانية في خراسان، وارتفعت مكانته عند الامير سبكتكين، وخدم ابنه يمين الدولة (السلطان محمود، ابن سبكتكين) ثم أخرجه هذا إلى ما وراء النهر، فمات غريبا في بلدة " أوزجند " ببخارى.

له " ديوان شعر - ط " صغير، فيه بعض شعره.

وفي كتب بالادب كثير من نظمه غير مدون.

وهو صاحب القصيدة المشهورة التي مطلعها: " زيادة المرء في دنياه نقصان ".

انظر: الأعلام ٣٢٦/٤، ووفيات الأعيان ١/ ٣٥٦ ومفتاح السعادة ١/ ٢٢٩ والبداية والنهاية ١١/ ٢٧٨ وهو فيه من وفيات سنة ٣٦٣ هـ، كما هو في المنتظم ٧/ ٧٢ وكلاهما خطأ لان السلطان يمين الدولة استولى على خراسان سنة ٣٨٩ وكان أبو الفتح من كتاب ديوانه فيها.

من أن يعلق بقلبه شيء من تلك الأقوال، ويقرطس غرض القبول بعض تلك النبال، فحضرته ذات يوم، وقلت له: إن همة مثلي من أرباب هذه الصناعة لا ترتقي إلى أكثر مما رآني الأمير أهلا له من اختصاصه واستخلاصه، وتقريبه واختياره وترتيبه لمهمات أسراره، غير أن حداثة عهدي بخدمة من كنت به موسوما، واهتمام الأمير ببعض ما بقي من شغله يقتضياني أن استأذنه في الاعتزال إلى بعض أطراف مملكته ريثما يستقر له هذا الأمر في نصابه، فيكون ما آتيه من هذه الخدمة أسلم من التهمة، وأقرب إلى السّداد، وأبعد من كيد الحسّاد، فارتاح لما سمعه، وأوقعه من الأحماد موقعه، فأشار عليّ بناحية الرّخّج، وحكّمني في أرضها أتبوأ منها حيث أشاء، إلى أن يأتيني الاستدعاء.

فتوجّهت نحوها فارغ البال، رافغ العيش والحال، سليم اللسان والقلم، بعيد القدم عن مخاضات التّهم.

قال: وكنت أدلجت ذات ليلة، وذلك في فصل الربيع أؤم منزلا أمامي، فلما أصبحت، نزلت فصلّيت وسبّحت ودعوت وقمت للركوب، ففتح ضياء الشروق طرفي على قرية ذات يمنة محفوفة بالخضر، مغمومة بالنّور والزّهر، وأمامها أرض كأنها مفروشة ببساط من الزبرجد منجّد بالدّر والمرجان، مرصّع بالعقيق والعقيان، يتسبسب بينها أنهار كبطون الحيّات، في صفاء ماء الحياة. وقد فغمني من نسيم هوائها عرف المسك السحيق، والعنبر الفتيق، فاستطبت المكان، وتصوّرت منه الجنان، وفزعت إلى كتاب أدب كنت استصحبته وحملته مع نفسي لأخذ الفأل، على المقام والارتحال، ففتحت أول سطر من الصفحة عن بيت شعر وهو[1]: [مجزوء الكامل]

وإذا انتهيت إلى السلا مة في مداك فلا تجاوز

فقلت: هذا والله الوحي الناطق، والفأل الصادق. وتقدمت بعطف ضبنتي إليها، وغنيت ستة أشهر بها في أنعم عيش وأرخاه، وأهنأ شرب وأمراه. إلى أن أتاني كتاب الأمير في استدعائي إلى حضرته بتبجيل وتأميل، وترتيب وترحيب، فنهضت إليها، وحظيت بما حظيت به منها إلى يومي هذا.

وكان اختياره ذلك أحد ما استدلّ به ذلك الأمير على رأيه ورزانته، ودرّجه به إلى محلته ومكانته، وصار من بعد ينظم بأقلامه منثور الآثار عن حسامه، وينسج بعباراته

(١) لم اهتد لقائله، انظر: يتيمة الدهر ٤/٢٤٧، ومعاهد التنصيص ١/٣٢٣.

وشائع فتوحه ومقاماته، وهلمّ جرّا إلى زمان السلطان يمين الدولة وأمين الملة. فقد كتب له عدّة فتوح إلى أن زحزحه القضاء عن خدمته، ونبذه إلى ديار الترك من غير قصده وإرادته، فمات بها غريبا، ولم يجد من مساعدة الزمان نصيبا.

ولما استتب للأمير تلك النواحي، واستقرت على شعار دعوته الأقاصي والأداني، وصفت له أشرابها، ودرّت عليه أحلابها، استخلف عليها من اختاره من ثقاته وخواصه.

وكانت بلاد قصدار قد وقعت من وراء بيضته. ومرد عليه واليها، لحصانة أطرافها ونواحيها، وخشونة مصاعدها ومهاويها، وظنّ أن بعد الشقّة، وحزونة المضرب، وضيق المدخل، ووعورة التغلغل، مانعته من الدّمور عليه، وقاطعته دون الوصول إليه، فلم يرعه إلا صيحة الغارة، وإحداق الخيول به كالخط في الاستدارة، وقد طوى الأمير إليه تلك الطرق القاصية، والقلل العاصية المتناصية، في ركضة لم ينل فيها جنبه قرارا، ولا عينه غرارا، ولا خيله جماما إلّا لمامًا فهجم عليه في ربعه بنفسه وصحبه، فأخذه كما قيل(١):

فأخذتــه أخْــذَ المقصِّــب شــاتَهُ عَجــلانَ يَشــويها لقــومٍ نُــزَّلِ

وكان صباحه كما قيل(٢):

إِذا خَـرِسَ الفَحْـلُ وَسْـطَ الحُجُـورِ وصــاحَ الكِـلَابُ وعُــقَّ الوَلَــدْ

ثم رأى أن يمنّ عليه، ويرجع إليه ما كان بيديه، فأطلقه تطوّلا وإنعاما، وأعاده إلى مكانه إحسانا وامتنانا، وواقفه على مال يعجّله، وآخر في كل سنة يحمله. فعمرت باسمه تلك المنابر، واشترك في العلم بحاله الوارد والصادر، والغائب والحاضر.

ولم يزل بعد ذلك، يدارك الركض على أطراف الهند غازيا ومجاهدا، حتى افتتح قلاعا كانت مرتفعة في جبالها، مطمعة بأموالها، ممتنعة برجالها. وحصّلها كلها في يده، ونظم خزائنها في سلك ملكه.

ولم يزل يتوغّل تلك الحدود، حتى افتتح قلاعا لم يسكنها قبل إلّا كافر، ولم يطأها في الإسلام خفّ ولا حافر.

---

(١) لم اهتد لقائله، انظر: البيان والتبيين ٣٨٦/١، والحيوان ٥٦/٣.

(٢) لم أهتد لقائله، انظر: الحيوان ٧١/٢، وشرح نهج البلاغة ٢١٢/٢٠، والتاج (حجر).

ولمّا علم چيبال الهند ما دهاه ممن يطوي مسافة ملكه، ويقبض من أطراف ولايته، ويلصق الهون والخسار بمن يحامي عن حوزته، أخذه المقيم المقعد، وملكه المزعج المكمد، ورأى الأرض قد ضاقت عليه بما رحبت، فثار بنفسه وعشيرته، وأعيان جيوشه وتكاكرته، وما خفّ من ثقال فيلته، يريد الانتقام منه بوطء عرصة الإسلام، واستباحة حلته الحرام، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف:٨].

وسار كما هو حتى جاوز لمغان، دانيا من ولاية الأمير دنوّ الواثق بطوله، السّاكن إلى قوّته وحوله، وقد باض الشيطان في رأسه وفرّخ، وشوى السوداء في دماغه وطبّخ، فهو يظن الظنون، ويعدّ في حساب الحسبان ما لا يكون.

ولما سمع الأمير بتورّده وتغلّبه، استعدّ لمناهضته، وجمع أولياءه على محاجزته، واستجاش من مطوّعة الإسلام من وجب استجاشتهم لمناصبته، وكفّ بأسه ومعرّته. وبرز من غزنة متوجها نحوه، وقاصدا قصده بنيّة في الجهاد قويّة، وحميّة للإسلام أبيّة. وواقفه بين الناحيتين في رجال كقطع اللّيل، أو دفع السّيل، ومعه السلطان يمين الدولة وأمين الملة كالليث الخادر، والعقاب الكاسر، والموت الكاشر، لا يؤم صعبا إلا ذلّله، ولا يروم عقدا إلا حلّله، ولا يزحم منكبا إلا حطّمه، ولا يصاول قرنا إلا أباح دمه. ونشبت الحرب بينهم أياما ولاء، وأديرت عليهم كؤوس الطعن والضرب ملاء، حتى سكر الفريقان، من سورة الطّعان.

وبقرب تلك المعارك، مما يلي الكفار عقبة تعرف بعقبة غوزك، ينخفض عنها طرف العقاب، ويعسكر دونها جيش السحاب، ذات مهاو ومشارف، ومثان ومعاطف، وفي بعض أوهادها شريعة ماء كالشريعة الحنيفية في الطهارة، لا تقبل قذرا، ولا تحمل غثاء ولا غثرا، فإن ألقي شيء من القاذورات فيها، اكفهرّت له السماء، واختلفت النكباء، وأظلمت الشواهق والأعماق، وغصّت بالزّمهرير الآفاق، حتى يرى الموت الأحمر عيانا، والعذاب الأكبر حقيقة وبيانا. فعندها أمر الأمير بإلقامها ضربا من النجاسات تعمدا، فقامت القيامة على الكفرة الفجرة، وتوالت عليهم الصواعق والقوارع، وأحاطت بهم الرياح الزّعازع، ومدّت السماء عليهم سرادق البرد والخصر، وأثارت عليهم زعازع الإعصار والقتر، حتى عميت عليهم المذاهب والمهارب، وانسدّت دونهم المساري

والمسارب، فاستسلموا لفرط الهول والوهل، وشهدوا بأن قد شاهدوا الموت قبل حلول الأجل.

وأرسل جيبال يطلب الصلح، ويستكفّ الحرب على مال يؤديه، وحكم للأمير في فيلته ومملكته يمضيه، فهمّ الأمير بإجابته إلى ملتمسه إشفاقا على أوليائه، أو لصواب عنّ له في رأيه، فنهر السلطان يمين الدولة وأمين الملة أولئك الرسل نهرا، وأبى أن يكون فيصل الحرب إلّا عنوة وقهرا، حميّة للإسلام والمسلمين، وثقة بالله ربّ العالمين، فانصرفوا بما عرفوا من صورة الحال، وضيق المجال. فاضطر جيبال ما أعياه من الحيلة في أمره إلى إعادتهم في طلب المكافأة خاشعا، والتماس الموادعة طائعا ضارعا.

وكانت زبدة كلامه أنكم قد عرفتم حميّة الهند، واستهانتهم بالموت إذا طرقهم طارق محذور، وحزبهم حازب مكروه، فإن يكن امتناعكم عن الصلح طمعا في الغنيمة والفيء والفيلة والسبي، فما هو إلّا صرّيّ عزم نمتطيه في استهلاك الأموال، وسمل الأفيال، وعرض الغلمان على النيران، ومشي الرجال بعضهم إلى بعض بأطراف الحراب، وظبات السيوف. ثم شأنكم وما يبقى من جماد ورماد، وموات ورفات.

فلما سمع الأمير ذلك من كلامه، وأحسّ مصدوقة ما همّ به عند يأسه من مرامه، رأى حظ الدين وأوليائه في موادعته، واستنزاله عن ماله وعدّته، أرجح من تخليته، وما اختاره من التقاطع بالسيوف، والتهافت في الوقود، فواقفه الأمير السيّد يمين الدولة وأمين المّلة على كفّ يد الإرهاق عنه على ألف ألف درهم شاهيّة، وخمسين رأسا من الفيلة ضمنها نقدا، وعلى عدة قلاع، وبلاد في سرّة مملكته، كان اشترطها عليه أن يسلّمها إلى من يتسلّمها من جهته، بعد أن يبعث إليه برهائن من عشيرته وأعزّته، على الوفاء بما يضمنه، والإنجاز لما يعده. وقبض المال والفيلة نقدا، وواقفه على البلاد المذكورة وعدا.

وأرسل معه بمسألته وحاجته دليلين يعدلان به عن التّعسّف، ويقفان به على القصد في المنصرف. وبعث معه بعدة من ثقاته لتسلّم الأماكن المشروطة منه، فلمّا أوغل به المسير، ورأى أنه قد خفّ عنه الطلب، واسترخى به اللّبب، حدّثه خبث الضمير بالإخلاف، وأركسه عجز الرأي في استئناف الخلاف، واعتقل من كان في صحبته بدلا عمّن رهنهم من عشيرته. وقدّر الأمير أن الذي بلغه من أمره إرجاف يردفه خلاف

وباطل، ليس له حاصل، إلى أن تناصرت به الأنباء، فبرح الخفاء، وانكشف الغطاء، وعلم أن الله تعالى قد طبع على قلبه، وحال بينه وبين رشده، ليحيق به وبال أمره، ويحقّ عليه مآل كفره، وشحذ عزيمته لغزو بلاده، وتخليصها عن خبث خبثه وفساده، ونهض في الكماة من غلمانه، والحماة من رفقائه وأعوانه، متوكلا على الله وحده، ومتنجّزا في النصر وعده. وسار حتى اقتحم بهم ديار الهند، فلم يبرز له بارز من أعوان چيبال وجيوشه إلّا أوسعهم طحنا، واستلحمهم ضربا وطعنا.

وقصد لمغان وهي كورة بحصانة الأطراف، وغزارة الإخلاف مشهورة، فافتتحها عنوة واقتدارا، وأضرم بعضها على الكفّار نارا، وهدم بيوت الأصنام، وأقام فيها شعار الإسلام، ومضى عنها قدما يفتتح البلاد، ويقتل الأنجاس والأوغاد، حتى أذلّ المشركين، وشفى صدور قوم مؤمنين.

ولمّا أرمى على الغاية في النكاية، وأربى على قدر الإمكان في الإثخان، وبردت يده وأيدي أوليائه بما يغمر العدّ والحدّ من كرائم الأموال وغنائم تلك البلاد، عطف الأعنّة وراءه، كريم الظفر، حميد الأثر، ميمون الورد والصدر.

وتطايرت كتبه إلى الآفاق بذكر ما فتح الله للإسلام على يده، فاشترك الناس خاصة وعامة في الارتياح له، والانشراح لموقعه، والشكر لله على ما أتاحه فيه من صنعه.

ولما رأى چيبال ما قد دهاه، جزاء عما نقضه من عهده، ونكثه من مرائر عقده، ورأى جنوده ووجوه رجاله جزر السيوف القواطع، وطعم النسور والخوامع، سقط في يده، وفتّ في عضده، ونالت منه الندامة، وقامت عليه القيامة. وبقي زمانا مبهوتا على حاله، لا يعرف الرأي في ظهر إدباره، أو في وجه إقباله. ثم حركته الأنفة لاستئناف المناجزة طلبا للثأر وطمعا في الانتصار، ففكرّ ودبّر، ثم أقبل وأدبر، ثم عزم وقرّر، ونادى فحشر، وثار في مائة ألف أو يزيدون، وبلغ الأمير خبره، فقابل إقباله بالاستقبال، وحرّض المؤمنين على القتال، وسار بقلب منشرح، وأمل منفسح، حتى إذا دنت الخطى بين الفريقين، فرع الأمير ثنية مشرفة على سواد الكفرة، فإذا النمل محشورا، والجراد مبثوثا منشورا، فراعه منهم ما يروع الذئاب من سوائم الغنم، والليوث الجياع من هوامي النعم. وحثّ أولياء الله على الكفرة القلف، فأجابوه سراعا بقلوب محشوّة بالدين، مملوءة من صدق اليقين، وتقدّم إليهم بأن يتناوبوا الحملات بينهم في كل حملة

خمسمائة غلام بالدبابيس الحاطمة، والقراتكينيات الهاشمة، حتى إذا أبلوا عذرهم في الجهاد، خلفهم من أضرابهم من ينوب منابهم رضّا وهضّا، وطعنا وطحنا، ففعلوا ما أمرهم، واحتذوا ما رسمهم. فلم تزل هذه حالهم حتى استغاث الملاعين من حرّ الوطيس، ووقع الدّبابيس، وهموا بأن يجعلوها حملة واحدة تزحزح الأقدام، وتقتلع الجيش اللّهام، فعندها حمي الوطيس، واختلط المرؤس بالرئيس، وتداعت الصفوف، وعزلت العوامل إلّا السّيوف، واختلفت الضربات، فمن واحدة تقطّ الهام، وأخرى تقدّ الأجسام.

وثارت عجاجة غبراء سترت العيون عن الأشباح، فلم تعرف الصّفاح من الرماح، ولا الرجال من الأفيال، ولا الأبرار من الفجّار، ثم انجلت عن هزيمة الأنجاس الأرجاس، وإسلامهم عدتّهم وعتادهم، وأسلحتهم وأزوادهم، وفيلتهم وكراعهم، وقد غصّت البيداء بجيف قتلاهم بين جريح بحدّ الحسام، وطريح من هول ذلك المقام، سنة الله في الذين خلوا من قبل ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا﴾ [الأحزاب:٦٢].

ولوت الهنود بعد ذلك أذنابها على رؤوسها، ورضوا بأن يسلموا من حرّ الطلب في أقاصي ديارهم، ويتركوا في شعارهم، بمنابت أشعارهم. وصفت تلك النواحي لذلك الأمير، ودرّت عليه إخلاف الأموال، وانحلّت له عقد الجبايات، وحصل له من وجوه الغنائم وغيرها مائتا رأس من الفيلة الحربية. وكثف سواد جيوشه، ودانت له الأفغانيّة، والخلج، فمتى شاء، استثار منهم الآلاف في خدمته، وامتهن الأرواح والنفوس في نصرته، والقيام بفرض طاعته.

وعند ذلك أوجب إغاثة الأمير أبي القاسم نوح بن منصور والي خراسان، وإعانته على جيوش الترك الذين أجلوه عن دار ملكه ببخارى، وزحزحوه عن وطنه بها، حتى فرّق دهماءهم، واضطرهم إلى الانهزام وراءهم، كرما لم ينشط له غيره من أولياء تلك الدولة، وأنشاء تلك النعمة، لا جرم أن الله عزّ وجلّ حاز له جماله وذكره، وقصر عليه سناءه وقدره، وجعل كدحه سببا لا نسياق الملك إلى ولده، وتوطئة لبقاء العزّ في عقبه، وذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

ذكر الأسباب التي أطمعت الترك في ولاية الأمير أبي القاسم نوح بن منصور وتوسط مملكته، وإجلائه عن بيته وخطّته

قد كان انتقل الملك إليه سنة خمس وستين وثلثمائة، واجتمع أولياؤه وحشمه على بيعته، بعد أموال عظيمة أطلقت، وعشرينيات فرّقت، حتى تبدّد شمل الأموال التي كان وزراء السّامانية من قبل يكدحون لها، ويدأبون لجمعها، كأبي الفضل البلعمي، وأبي جعفر العتبي، ومن كان ينتصب منصبهما في الوزارة، وتدبير أمور المملكة.

وكان أبو الحسن محمد بن إبراهيم بن سيمجور إذ ذاك صاحب الجيش بنيسابور، فتلطّف له في الرضا به، وعقد البيعة له على صغر سنّه وحداثته. وضوعفت له الصلات المطلقة لأمثاله من أركان الدولة حتى لانت عريكته، وتمّت بيعته، وفوّضت الوزارة إلى أبي الحسين العتبي رحمه الله، فقام على ميعة شبابه بالأمر قيام الحدب الشفيق، وكفله بمناصحته كفالة المؤيد بالنصر والتوفيق، حتى استقامت بحسن تدبيره الأمور، وانشرحت الصدور، وانسدّت الثغور، واستطارت هيبة تلك الدولة شرقا وغربا، وبعدا وقربا.

وكان الأمير عضد الدولة وتاج الملّة على جلالة قدره، ونباهة ذكره، ومناعة جانبه، وخشونة حدّه، يتوخى رضاه فيما يحتكم عليه من المطالب التي تختصّ بولايته.

وربما أخذته العزة باللّجاج، فيذكر ما وراءه من الأدواء المعضلة، والأمور المستفحلة، فتسمح قرونه، ويذلّ صعبه وحرونه.

وحدّثني أحمد الخوارزمي، وكان من جملة خاصّته، مندوبا لحمل رسوم كل عام إلى بيت الله الحرام ومجاوريه، وسكان مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، وتفريقها فيهم ووضعها مواضعها منهم، قال: دخلت عليه ذات يوم منحدري من خراسان، فسألني على رسمه عن حال ذلك الشيخ في سلامته واستقامة الأمور في ضمن كفايته، ثم قال: هات ما استدعاه، واعرض عليّ ما بدا له وتوخّاه، فعرضت تذكرة كان سلّمها إليّ بتفصيل ما رسم لي حمله من ديار العراق، ومن جملتها ألف ثوب مستعملة مطرّزة الأطراف، باسم الأمير السيد الملك المؤيد، المنصور ولي النعم أبي القاسم نوح بن منصور، مولى أمير المؤمنين، وخمسمائة مطرّزة باسم الشيخ السيد أبي الحسين عبد الله بن أحمد، ومثلها معلّمة باسم الحاجب الجليل أبي العباس تاش.

فلما تأمل النسخة، دخلته نخوة الملك، وملكته حميّة العزّ، وطار به الغضب كل مطار، فألقى إليّ في الجواب، أن ابن العتبي لو اغتنم سلامة ما يليه، وتفرّد بالتدبير فيه، لكان أولى به، وأعود عليه وعلى صاحبه، ممّا يسومني بهذا الاحتكام وأمثاله، غير أني أجعل سواحل جيحون قبل عودك من وجهك مرابط للجحافل، ومراكز للقنا والقنابل، فقمت من مكاني متخاذل القوى تخوّفا من سطوته وبأسه، وأخذت أجرّ رجلي على الأرض تهيبا وارتياعا إلى أن أركبت على الرسم وانصرفت إلى المناخ.

فلما أزف ارتحال الحجيج، أتاني رسوله، فبادرت إليه، وأحسنت خدمة المجلس بين يديه، فزادني على المعهود بشرا خصيبا، وبرا وترحيبا، وقال: قد أمرنا في معنى تلك التذكرة بما استدعاه ذلك الشيخ كراهة لاستيحاشه، وخلافا على خلاف وفاقه، فتنجز العمل به ليوافق عودك فراغ الصنّاع منه، وحصول المراد به.

قال: فاستعملت ذلك كله من الطرز المذكورة، وحملتها في صحبتي إلى بخارى مشفوعة بسائر ما رسم لي تحصيله وتنجزه.

وقد أكثر الشعراء من أهل العصر في وصف محاسن الشيخ أبي الحسين العتبي رحمه الله، ولا سيما أبو طالب المأموني[1] فإنه سيّر في مدحه قصائد غير معدودة، منها قوله من قصيدة يمدحه بها، وهي:

هذي عزائم عتبي تفرّق ما ... بين الجماجم والأعناق إن عتبا
ذو همة ملء عين الدهر إن برزت ... من صدره لم تسعها الأرض مضطربا
إذا انتضى للندى أو للردى قلما ... أجرى به سحبا أو جحفلا لجبا
يشجي الصعيد صعادا والنديّ ندى ... إذا تهلّل للمعروف أو قطبا

وقوله فيه من أخرى:

كتائب منصوريّة ملكيّة ... أبى السيف فيها أن يرى الغمد مضجعا
يؤيدها عتبي عزم مؤيد ... بحزم يخلي خلفه البيض ظلّعا

---

(١) هو عبد السلام ابن الحسن، شاعر عباسي وصاف من شعراء اليتيمة ينتهي نسبه إلى الخليفة المأمون العباسي، ت ٣٨٣ هـ.

انظر: (يتيمة الدهر ٤/ ١٦٢ - ١٦٤، فوات الوفيات: ٢/ ٢٣٠ - ٣٢٢، ومقدمة شعره جمع وتحقيق د. رشيد العُبيدي. والمستفاد:٢٩٥ - ٢٩٦).

إذا أمر الشيخ الجليل سيوفها هوت سجّدا للدارعين وركّعا
يعود بها وجه الخلافة أبيضا بأبيض من أبناء عتبة أروعا

ومن ذلك قول اللّحّام فيه[1]: [البسيط]

وأعتب الدهر إذ عاتبته بفتى من آل عتبة نفّاع وضرّار
كأنما جاره في كلّ نائبة جار الأراقم في أيام ذي قار
يجري المكارم في لاء وفي نعم فالناس في جنّة منه وفي نار

ومن ذلك قول أبي الحسين العلوي الرضي:

كأنما الدهر تاج وهو درّته والملك والملك كفّ وهو خاتمه
والبرّ والبحر والأعلام أجمعها والخلق والفلك الدوّار خادمه

وقلّد أبو العباس تاش الحجبة الكبيرة، فولي أمور الباب وزعامة الحجّاب، والسفارة بين أولياء السلطان وحشمه في تنجز حاجاتهم، واستطلاق أطماعهم وعشرينيّاتهم، واستزادة مراتبهم وولاياتهم، حتى تحقّقت النفوس بمحبته، وتعلّقت الأهواء بزعامته.

وفتح أبو الحسين عليه أبواب الفوائد والإصابات حتى كثر وفره، وظهر أمره، واشتدّ بالاستظهار ظهره.

وكان أبو العباس من جملة فتيان أبي جعفر العتبي.. ملك يمينه، أهداه إلى الأمير السّديد أبي صالح إيثارا له بخدمته على نفسه، لكيسه وذكائه، ورضيّ شمائله وأنحائه. فاستتم أبو الحسين العتبي الصنيعة عنده بالرفع منه، والتنويه به، والإشالة بضبعه وباعه، وتدريجه إلى المحلّ الذي توسّمه فيه لقوّته واضطلاعه. وجرت أمور ذلك الباب، بتعاضدهما على النصائح، وترافدهما على ارتهان المصالح، على أحسن الوجوه هيئة وجمالا، وهيبة وجلالا، ونفاذا للأوامر يمينا وشمالا.

واستخص أبا الحسين فائق الخاصة لطول خدمته للأمير السّديد، وحظوته عنده، واختصاصه برعايته، واشتراكه في وصايته، فكان شريكهما في التدبير، وصيانة هيبة السرير. وأقرّ أمر الجيش بخراسان على أبي الحسن محمد بن إبراهيم بن سيمجور،

---

(١) انظر: يتيمة الدهر ١١٨/٤.

فتفرّد كل منهم بحماية الملك سدّا للثغور، وسياسة للجمهور، وحصدا لنواجم الشّرور، إلى أن بدت أكمامها تنفتّق، وجيوبها تتخرّق. وكان من ذلك أمر سجستان، وسببه أن خلف بن أحمد، كان قد استنصر الأمير السّديد، على طاهر بن الحسين، قريبه وخليفته على أعمالها، بعد انكفائه من حج بيت الله الحرام، وذلك في شهور سنة أربع وخمسين وثلثمائة لتمكنه كان من الولاية، واستظهاره بالمال والعدّة، واستمالته قلوب الأجناد، والرّعايا من أهل تلك الخطّة. فأحسن نصرته ومعونته، وكفاه كلفته ومؤونته، وأمدّه بمن استمدّه من كماة الجيوش، لردّه إلى بيته، وتقرير مملكته في يده، فانحاز طاهر حين أحسّ بالمدد وكثرة العدد، إلى أسفزار حتى قرّ خلف قراره، ووضع عنه آصاره، وصرف عن ظهر الاستغناء أعوانه وأنصاره، ثم كرّ عليه كرة أجلته عن داره، وطرحته إلى باذغيس فيمن نادى بشعاره.

فعاود حضرة الأمير السّديد مستصرخا إياه، وضارعا إلى غوثه فيما دهاه، فأحسن لقياه، وأكرم مثواه، وأعاد تقويته وإنجاده، وكثّف بالخيول سواده، وردّه بهم إلى سجستان، فوافق وصوله إليها مضي طاهر لسبيله، وانتصاب ابنه الحسين منصبه، ووراثته في الخلاف مذهبه، فحاصره خلف مناصبا له الحرب غاديا ورائحا، ومماصعا ومكاوحا حتى كثر القتلى بين الفريقين، وطالت يد الانتصاف على أصحاب الحسين، فعندها كتب إلى بخارى متنصّلا عن سمة الخلاف، ومتلطّفا للاستفادة والاستعطاف، ومظهرا الطاعة في وفادة الحضرة، ومباشرة تراب الخدمة، حتى صادف إرخاء من ضيق الخناق، وفكاكا من شدّة الإرهاق، فأحسن ذلك الأمير إجابته، وقابل بالقبول إنابته، وسهّل إلى ورود الحضرة سبيله، وحقّق بالإحسان والإفضال تأميله.

واستقرّت أمور سجستان على خلف بن أحمد، فطالت عليها أيامه، وطارت فيها أوامره وأحكامه، وانبسطت بالعزّ يده وباعه، وتموّجت بذخائر الأموال رباعه وقلاعه.

وانقطعت عن بخارى موادّ خدمته وطاعته، وإعفائه بمال مواقفته، ومقابلة حق الاصطناع بواجبه. وانضاف إلى ذلك استهانته بالأوامر الصادرة إليه في حثه على رشده، ودعائه إلى ما يجمع صلاح يومه وغده، فجرّد عند ذلك الحسين بن طاهر لمناهضته في جمرات خراسان ومشاهير رجالها، ومساعير أبطالها. فحصره في قلعة أرك، ودارك عليه الحرب زمانا طويلا، فلم يغن فتيلا، ولم يجد إلى الافتتاح سبيلا.

وجعل أبو الحسين العتبي يزيده عددا على عدد، وصفدا على صفد.

وكان من جملة القوّاد بها كيتاش، وبكتاش، وإخوة الحسن بن مالك وأضرابهم من أنياب تلك الدولة ووجوه أنشائها، ورجوم سمائها. فطال هناك ثواؤهم، وقصر عن المراد غناؤهم، لمناعة الحصار، وحصانة سوره، وشدّة أغلاقه وسدوده. وأعيا الخندق المحيط به على الفارس أن يعبره ركضا، وعلى الراجل أن يقطعه خوضا، ولإرصاد خلف إياهم بفنون الحيل التي يقلّ استثباتها بالظن والحسبان، إيهاما للبيات، واطّلاعا على مأمون الجهات، وقذفا بجرب الأفاعي عن أفواه المجانيق والعّرادات، حتى يضطروا بذلك إلى الارتحال، والتّنقّل في المضارب والمحال.

وبقوا هناك قرابة سبع سنين على هذه الجملة، حتى فنيت الرجال، ونزفت الأموال، وذهبت الحرائب، وعطبت المطايا والركائب. وكانت هذه من أوائل الوهن على تلك الدولة. ومن هناك وهي العقد، وانبثق السّكر، وتزايد الفتق، واتسع الخرق. ولكلّ أمر أمد، ولكل أمّة أجل، ولكل ولاية نهاية، ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد:٣٩].

وتذاكر أركان تلك الدولة فيما بين هذه الحال، لزوم صاحب الجيش أبي الحسن مكانه من نيسابور، كلا على صاحبه، لا يناهض خصما، ولا يجبر وصما ولا يفتح سدّا، ولا يحسن ردا، ولا يغمس في مصالح الدولة يدا. وتناضلوا بينهم ما كان الأمير السّديد يصطنعه عليه لالتزازه بالمكان، وجموده عن نصرة السلطان، وزيّنوا آراءهم على صرفه، والاستبدال به.

وكتب إليه في الصرف، وقلّد أبو العباس تاش ما كان يليه من الأمر، فلما ورد الرسول عليه، وأدّى ما تحمله على رؤوس الأشهاد إليه، أبت عليه الحميّة خطة الهوان، ولقّنته الأنفة كلمة العصيان، وطارت نعرة الخلاف في رأسه، فادّعى الأمر لنفسه، اتكالا على فرط قوته وبأسه، واعتزازا بأولاده وأعضاده، واستظهارا بجيوشه وأجناده. ثم بيّت التدبير، وخمّر الرأي والتفكير، فلم يرض بأن تتناقل الألسنة ذكر استعصائه، على شيخوخته في الدولة، وتناهي مدته في الخدمة، وتصوّر ما يتبع الخلاف من ركوب المصاعب التي تسلب النفوس جمامها، والعيون منامها، والأموال المذخورة نظامها،

إلى ما فيه من التعرّض لمكروه النوائب، والتحكّك بمحذور العواقب. فرأى أن قبول الضّيم على السلامة من لواحق الآفات، أقرب إلى الصواب، وأبعد من المعاب.

ودعا الرسول فاستقاله عثرة ما قاله، وعرض صدق الطاعة، مشفوعا بفرط الخشوع والضراعة. وقال: إنما أنا نبعة غرسها السلطان بيده، وسقاها بماء كرمه، فله المشيئة في استبقائها للإثمار، أو اقتلاعها وإلقائها على النار.

وصرفه على جملة الطاعة، ولين المقادة، والبدار، إلى حيث يجلي إليه من ديار المملكة. وتلطّف لتسكين من كان يفتل في ذروته من أهل بيته وأوليائه، بتسويله وإغوائه، فعل من استشف ببصيرته أستار المعائب، وأنفق عمره في تجارات التجارب.

ونهض إلى قهستان منتظرا ما يستأنف به أمره، ويقرّر عليه تدبيره، إلى أن رمى به في نحر خلف بن أحمد لإعضال دائه، وتجمير العساكر طول أيامها لفنائه، فبادر إلى سجستان، وبينه وبين خلف مودّة، وأسباب على الأيام مؤكّدة، فافتتح الرأي عليه بالنزول للحسين بن طاهر عن متحصنه، والانتقال إلى غيره من معاقله، ليصل بحبله، وينخرط هو ومن تحت رايته، في سلك خيله ورجله، ليتسبب هو ومن كان من قبل محدقا به من أولياء تلك الدولة إلى الانصراف عن جنابه بعلّة الافتتاح، وظاهر النجاح، فاذا خلا وجهه له، ثنى العنان إليه منتصفا منه، وممضيا حكمه فيه. فقبل مشورته، وفارق أرك إلى حصار الطاق، حتى دخلها أبو الحسن بن سيمجور، وصلى الجمعة بها مقيما رسم الخطبة للأمير الرضا، وطالعه بذكر ما فتح الله على يده، وسنّاه من رتاج ذلك الأمر بجدّه وجهده، ورتّب الحسين بها أميرا، وقرّر أعمالها عليه تقريرا، وانصرف هو وراءه. وسنورد ما جرى من أمره من بعد في موضع مثله.

ذكر حسام الدولة أبي العباس تاش الحاجب وانتقال السالارية إليه

ثم سيّر أبو العباس تاش من بخارى إلى نيسابور، على قيادة الجيوش وزعامة العساكر، وتدبير القاصي والداني من أمور الممالك، ووصل جناحه بفائق الخاصة، ونصر بن طز الشرابي، وبني مالك على فخامة أخطارهم، وجلالة أقدارهم. وسيّر تحت رايته أعيان الأولياء والحشم بعد أن أزيحت علته فيما سأل واقترح من الأموال والأسلحة والعتاد والعدّة، فوردها سنة إحدى وسبعين وثلثمائة في آلة راعت الأبصار، وهيئة أعجبت النظّار، وهيبة شحنت الجوانب والأقطار، وحكت الرمل والنمل والأمطار. واستقر على سرير سالاريته، ودبر الأمور بصرامته، ونظم المنثور بفرط حزامته، وتألّف الجمهور برفق سياسته وزعامته.

ووافق تلك الأيام انقطاع شمس المعالي قابوس بن وشمكير، وفخر الدولة أبي الحسين علي بن بويه إلى نيسابور عن حرب جرت بين مؤيد الدولة بويه، وبينهما. وسببها أن عضد الدولة أبا شجاع كان قصد فخر الدولة وهو أخوه لإجلائه عن ولايته التي كان أبوه ركن الدولة أوصى بها له، وعقد الوثيقة على كل منهما به على الجملة التي أشار إليها أبو إسحاق الصابي في كتابه المعروف بـ(التاجي). ودبّر ودسّ إلى أهل عسكره من استمالهم عنه، وأغراهم به، فلما ناهضه وهو إذ ذاك بهمذان، وتدانت الخطى بينهما، خفّ معظم جيوشه إلى عضد الدولة مستأمنين، وولّوه أعقاب الغدر هاربين. فلما آنس خذلانهم إياه، وكفرانهم نعماه، وبالأمس ما قد رأى ابن عمه بختيار كيف قطع رحمه، وأريق دمه، خالفهم إلى طريق الدّيلم هائما على وجهه، وناجيا بحشاشة نفسه، ومتقيا بركوب شعابها المضطربة، وآجامها الأشبة، محاذرة من مسّ الطلب، وركض الأكراد والعرب. وتوغل تلك البلاد طاويا مسافتها إلى جرجان، حتى ألمّ بشمس المعالي قابوس بن وشمكير لاجئا إليه، ومستأمنا إياه، فأمّنه وآواه، ومهّد له ذراه، وأعطاه فوق ما تمناه، وأشركه فيما ملكت يداه، حتى جعل الملك- وهو العلق الذي طالما ضنت النفوس بابتذاله- وقاية له دون من همّ باغتياله، وسعى في استفساد حاله.

وبيان ذلك أن عضد الدولة ومؤيدها أرسلا إليه رسولا يستردّانه على شرط أموال تحمل إليه، وولايات عريضة تضاف إلى ما في يديه، وعلى مواثيق تستأنف في التعاقد على الصفاء والتعاون في حالتي السّرّاء والضّرّاء.

فرجع إليهما أن الرجاء رحم، والوفاء كرم، وأن للأمان عنده حرمة لا يرى إخفارها في دين المروّة، وشرط الحفاظ والفتوّة، وعساه لو همّ به أو كاد أن تأتي عليه بيض المواضي، وزرق الأسنة والعوالي، فأحفظهما هذا الجواب وحرّضهما على مكاوحته، وانتزاع مملكته من يده.

وكتب أبو شجاع إلى أخيه مؤيد الدولة بمناهضته بعد أن أمده بما فوق الحاجة من بهم الرجال، ونفائس الأموال، فبرز من الرّي متوجها نحو جرجان، في جيوش الديلم والترك والعرب، وسار إلى استراباذ متغلبا على كل ما يرده من بلاد طبرستان، إلى أن أناخ بها.

وكان شمس المعالي قابوس بادره إليها، وجمع عسكره بها، فلما تلاقيا تناوشا الحرب من لدن طلوع الشمس إلى الزوال، حتى احمرّ بساط الأرض من دماء الأبطال، ثم اتجهت على عسكر الجيل كشفة أعياهم ضبطها لزوال الأقدام عن المقام، فتفرّقت جموعهم في خمر الغياض والآجام. وعطف شمس المعالي إلى بعض قلاعه المشحونة بذخائر أمواله، واستظهر عنها بالأهبة للغربة، وسار نحو نيسابور. فلما وردها لحق به فخر الدولة من طريق أستوا فالتقيا هنالك، واجتمع إليهما من فرّقته الكشفة في الطرق المختلفة من طبقات الرجال. وكتب إلى الأمير أبي القاسم نوح بن منصور والي خراسان بحالهما في قصد دولته، وتأميل الانتعاش بعونه ونصرته، وافتكاك ما غصبا عليه من الولايات بعزّ دعوته. فورد عليهما من الجواب الضّامن للإيجاب، ما شرح صدورهما، وشدّ بالنّجح القريب ظهورهما. وكتب إلى أبي العباس تاش بإجلال محلهما، وإكبار قدرهما، وإكرام جوارهما، وتقديم الاحتشاد لردّهما إلى ديارهما. ففعل ما رسم، وتلقى بالامتثال ما حتم. وعطفت إليه أعنّة الخيول من كل وجه، حتى استظهر بنخب الرجال، وعزم على الارتحال، ونهض من نيسابور قاصدا قصد جرجان إذ كان مؤيد الدولة بويه بها لينتزع ولاية الأمير شمس المعالي أولا من يده، ثم يتفرغ من التدبير فيه إلى غيره.

وعنّ له أن يسرّح فائقا على سمت قومس والري ليقطع الإمداد والمواد عنه، ويلبس أخبار تلك الديار عليه، فيزيده شغل النفس بتوجه الجيوش إليه من وجهين، وإحداقهم به من جانبين، فنهض على السمت المذكور، ثم بدا له فيما دبّر ورأى أن التّحزّب للاستظهار على الوجه الواحد أصوب، ومن الحزم والاحتياط أقرب، فاسترده من وجهه إلى آزاذوار فاجتمعا على التضافر، واتفقت آراؤهم على التساير.

وسار حسام الدولة تاش في تلك العساكر إلى باب جرجان وفيهم شمس المعالي، وفخر الدولة حتى أناخوا بظاهرها. وتحصن مؤيد الدولة بويه بها، واحتجز بخندق قعّره، ومخترق غوّره، وفروج للبلد حصّنها، ودروب بحفظة الرجال شحنها.

ومادّهم الحرب حتى غبر شهران كيوم واحد في مداومة الكفاح، وملازمة السلاح. وضاق الطعام في ربض جرجان، حتى أعيا الديلم قوتهم الذي يحفظ على الثبات قوّتهم، فكانوا يرزأون من نخالة الشعير المعجونة بالطين، وعهدي بهم يدرجون كتبهم إلى أهاليهم بالري أشباه الفراخ، يظهرون فيها شكوى الحال والهزال، فكانت كأقراص المداد في السواد.

وزحف الفريقان بعضهم إلى بعض، وكان فخر الدولة على الميسرة مقابلا لعلي بن كامه صاحب جيش مؤيد الدولة، فأظهر الغناء وأحسن البلاء، وحمل عليه حملة زحزحته عن مقامه كليما، وطرحته إلى استراباذ هزيما. ولو أعين بمدد في الحال، لفسح له ضيق المجال، وجعلها آخرة القتال. لكن القوم نافسوه فخذلوه، لا جرم أن كوكبة من كتائب الديلم، عطفت على من تشاغل بالنهب والإغارة من أوباش الخراسانية، فطبقوا عليهم حبالة الأسر والحيف، ثم عرضوا عن آخرهم على السيف.

وورد بعد ذلك على أبي العباس تاش أبو سعيد الشبيبي في رجال من أجلاد جنود خوارزم، وقّاد الضّرام، وأبناء الشهامة والسّهام. واقترح الحرب بهم، فلم يضعوا نبالهم إلا في منافس الأشداق، ومواضع الثغر والأحداق، وأفشوا العور والقتل في الديلم ثم تحاجزوا يومهم ذلك. ولم يزل يقوم الحرب بينهم على ساقها ظاهرة وغبّا، فينتصف البعض فيها من البعض.

وكان أبو الفضل الهروي المنجّم أشار على مؤيد الدولة بمصابرتهم إلى أن يبلغ المرّيخ درجة الهبوط، فيجعلها واحدة عليهم منجحا أو مخفقا، فأسرّ ذلك في نفسه،

واستعدّ لوقته. فلما كان يوم الأربعاء من شهر رمضان سنة إحدى وسبعين وثلثمائة ثار بنفسه وعسكره وعساكر أخيه على اختلاف أجناسهم. وكان أهل خراسان يظنون أن حربهم تلك عارض ينقشع، وعن قريب على الرسم في مثله يندفع، فلما رأوها غماما ركاما، وشاهدوها غراما ولزاما، أقبلوا عليها مضطرين، فإذا الأمر إدّ، والخطب جدّ، والحد حديد، والبأس شديد.

وبرز الديلم من وراء الخنادق إلى العراء محرجين من جهد البلاء، وضنك البؤس واللأواء، فاستعرت وقدة الحرب، ودارت رحى الطعن والضرب، وتحدث الناس بأن مؤيد الدولة قد خبّب فائقا وأضرابه بمال حمله إليهم سرا، وأطمعهم في أمثاله حيلة ومكرا، وواطأهم على التساهل في الحرب لليوم المرقوب، والأجل المضروب.

فلما حمل عسكر الديلم من تعبئتهم، ولّوا أولئك أدبارهم نفورا. وثبت حسام الدولة تاش، وفخر الدولة في القلب يتضاربان بالسيوف والقراتكينيّات، ويردّان الحملات المتداركة بصدق النية في الثبات، إلى أن ألقت ذكاء يمينها في كافر، وقد انهزمت الجيوش وتفرقت تلك الجموع، فحذّره فخر الدولة فضل المقام لتكاثر الأقبال من كل وجه عليه، وتوجه الأطماع من كل أوب إليه. فانقلب إذ ذاك يريد المعسكر، فساخت قوائم الفيل الذي كان حصن القلب في بعض تلك المخاضات، وأعجله حرّ الأمر عن التوقف لإزعاجه وإخراجه، فتركه على حاله، ونجا برأسه وترك المعسكر شاغرا بما فيه من الأموال المعدّدة، والأسلحة المنضّدة، والغلمان الحصارية، والغلات المجموعة. ومضى على حاله إلى أن عاود نيسابور، فدخلها ليلا، وكتب إلى بخارى بخبر الوقعة، وما حدث من الرجعة. فعاد الجواب بتقوية الآمال، وتمنية الرجال، وتهيئة الأمداد والأموال. وطيّر الصاحب كتبه في الأطراف بذكر الفتح على ما تنطق به رسائله.

وأنشدني البجلي[1] الشاعر لنفسه في مؤيد الدولة من قصيدة قوله:

ما هال غيرك في هيجاء ملحمة ... مذكورة آل سامان وسامانا

فاكتب لمن ببخارى أمنة فلقد ... غادرته عند نوم الناس يقظانا

(١) هو أبو نصر عبد الله بن محمد البجلي الإسترابادي. انظر: قرى الضيف ٤/٥٥.

والبجلي هذا، مطبوع الشعر، مسبوك النقد، سديد البديهة، شديد العارضة، انقطع إلى الأمير شمس المعالي بجرجان في آخر أيامه، ففرض له في جملة حاشيته إلى أن قضى نحبه. فمن شعره فيه من قصيدة[1]: [البسيط]

لله شمسان تذكير لخيرهما ... وللمؤنثة النقصان ملتزم
أزرى بتلك سنا من غير معرفة ... فيها وزيّن هذا العلم والكرم
يا أيها الملك الميمون طائره ... وخير من في الورى يمشي به قدم
لو كنت من قبل ترعانا وتكنفنا ... لما تهدّى إلينا الشيب والهرم

ووصف أبو الحسن الجوهري[2] رحمه الله الفيل المقبوض عليه في الحمأ اللازب، بقصيدة، وهي[3]: [مجزوء الكامل]

قل للوزير وقد تبدّى ... يستعرض الكرم المعدّا
أفنيت أسباب العلى ... حتى أبت أن تستجدّا
لو مسّ راحتك السحا ... ب لأمطرت كرما ومجدا
لم ترض بالخيل التي ... شدّت إلى العلياء شدّا
وصرائم الرأي التي ... كانت على الأعداء جندا
حتى دعوت إلى الهدى ... من لا يلام إذا تعدّى
متقمّصا تيه العلو ... ج وفطنة أعيت معدّا
متعسفا طرق العوالي ... حيث لا يستاف قصدا

---

(١) انظر: يتيمة الدهر ٤/٥٥.

(٢) أبو الحسن علي بن أحمد الجوهري: نجم جرجان في صنائع الصاحب وندمائه وشعرائه فسكن دورة صناعة الشعر في ريعان عمره وعنفوان أمره وتناول المرمى البعيد بقريب سعيه وكان في إعطاء المحاسن إياه زمامها كما قيل جذع بين على المذاكي القرح.

وكان الصاحب يعجب أشد الإعجاب بتناسب وجهه وشعره حسنا وتشابه روحه وشمائله خفة وظرفا ويصطنعه لنفسه ويصرفه في الأعمال والسفارات وعهدي به وقد ورد نيسابور رسولا إلى الأمير أبي الحسن في سنة سبع وسبعين وثلثمائة يملأ العيون جمالا والقلوب كمالا وحين انكفأ إلى حضرة الصاحب وجهه إلى أبي العباس الضبي بأصبهان وزوده كتابا بخطه ينطق بحقائق أوصافه وأخباره. [انظر: قرى الضيف ٤/٢٩]

(٣) انظر: يتيمة الدهر ٣/٢٧١، ونهاية الأرب ٩/١٩١.

فيلا كرضوى حين يلبس ... من رقاق الغيم بردا
مثل الغمامة ملّئت ... أكنافها برقا ورعدا
رأس كقلة شاهق ... كسيت من الخيلاء جلدا
فتراه من فرط الدلا ... ل مصعّرا للناس خدّا
يزهى بخرطوم كمثل ... الصولجان يردّ ردّا
متمدد كالأفعوان ... تمدّه الرّمضاء مدّا
أو كمّ راقصة تشير ... به إلى الندمان وجدا
أو كالمصلّب شدّ ... جنباه إلى جذعين شدّا
وكأنه بوق يحرّكه ... لينفخ فيه جدّا
يسطو بساريتي لجين ... يحطمان الصخر هدّا
أذناه مروحتان أسندتا ... إلى الفودين عقدا
عيناه غائرتان ضيّقتا ... لجمع الضوء عمدا
فكّ كفوّهة الخليج ... يلوك طول الدهر حقدا
تلقاه من بعد فتحسبه ... غماما قد تبدّى
متنا كبنيان الخورنق ... ما يلاقي الدهر كدّا
ردفا كدكّة عنبر ... متمايل الأوراك نهدا
ذنبا كمثل السوط يضر ... ب حوله ساقا وزندا
يحظو على أمثال أعمد ... ة الخباء إذا تصدّى
أو مثل أميال نضدن ... من الصخور الصمّ نضدا
متوردا حوض المنية ... حيث لا يشتاق وردا
متملّكا فكأنه ... متطلّب ما لا يؤدى
متلفّعا بالكبريا ... ء كأنه ملك مفّدى
أدنى إلى الشيء البعيد ... يراد من وهم وأهدى
أذكى من الإنسان حتى ... لو رأى خللا لسدّا
لو أنه ذو لهجة ... وفّى كتاب الله سردا

عقّته أرض الهند حتى حلّ من زهو هرندا
قل للوزير عبدت حتى قد أتاك الفيل عبدا
سبحان من جمع المحا سن عنده قربا وبعدا
لو مسّ أعطاف النجوم جرين في التربيع سعدا
أو سار في أفق السماء لأنبتت زهرا ووردا
يا أيها الملك الذي أجدى وعلّم كيف يجدى
ما بال عبدك لا يرى لتأخر التشريف حدّا
برد الزمان وليته مما يلاقي مات بردا
قد صدّ عني تلكم الآ لاء حاشى أن تصّدا

وهرند نهر جرجان الذي جرت تلك الحروب على سواحله، وهو يتلوّى في أرض جرجان تلوّي الحيّات، كثير الأوبات والعطفات، ومنابع عيونه جبال دينار زارية، تنصب العين منها إلى العين حتى تملأ النهر وتدهده الصخر.

نعم، وواصل أبو الحسين العتبي كتبه إلى ولاة الأطراف بخراسان في استنهاضهم واستنفارهم لينحدر بهم إلى مرو، ويجتمع معهم بها، ثم يقبل بهم وبمن يستجيشه من رجالات خراسان على رفو ذلك الخرق، ورتق ذلك الفتق، ومحو سمة العجز، واستعادة رونق الملك. وأقبل يستعدّ للأمر بجدّه وجهده، ويواصل الكتب بجميل وعده.

وخلع الرضا عليه خلعة جمع له بها بين تدبير الأقلام والقواضب، وأضاف له إلى بزّة الكتّاب زي أرباب الكتائب، فكانت خلعة خالعة لروحه، قاطعة لعمره، خاتمة لأمره. وذلك لأن أبا الحسن بن سيمجور كان يشكو إلى فائق ما دهاه، من قصده إياه، حين عزله عما كان يليه، وكاده في نفسه وذويه. ولم ينفك يرصده بالغوائل، ويطلبه بوجوه الأوتار والطوائل، إلى أن أشار فائق عليه بطائفة من الغلمان السديديّة الذين كانوا رؤوس أضرابهم في السّفه والشّغب، والتحكم في المطالب بفرط القوة والغلب، ودسّ إليهم من أغراهم به بسفاتج ينجزها إليهم، حتى تآمروا بينهم على قتله، وتجمعوا على الفتك به مغتنمين خلوّ بخارى عمّن يحتمي له أو يحامي عليه.

وأحس أبو الحسين بما دبّر من الأمر، وأشفق على نفسه مما استطار من شر الشرّ، فشكا إلى الأمير الرضا صورة الحال، وما أرصد به من الاغتيال، فبعث إليه بعدّة من

القوّاد لمرافقته إلى الدار، إجارة له مما كان يخشاه، وصيانة لروحه عما تحاماه، فتسامع طائفة من المشتركين في التدبير عليه بخبره، فطاروا بأجنحة الركض على أثره، ووضعوا فيه السيوف والدبابيس حتى أثخنوه ضربا وحطما، ورضّا وقصما، وأشفق من كان في مسايرته على أنفسهم، فخذلوه وأهملوه، فكان مثله كما قيل[1]: [الطويل]

كليه وجرّيه ضِبَاع وَابْشِري بِلَحْمِ امْرِئٍ لَمْ يَشْهَدِ اليَوْمَ نَاصِرُهْ

وترك في الشارع صريعا، يمجّ دما نجيعا، وعندهم أنه قتيل، وأن ليس للحياة إليه سبيل، ونقل كما هو إلى باغ قريب من مصرعه ليراعى ما يحدث من الرأي في غده.

فلما غشيه موج الظلام، وهبّ عليه رخاء السّحر أنّ أنّة سمعها الباغبان فبادر إليه، فإذا به رمق قلق، ونفس مختنق، فسعى إلى دار السلطان مخبرا بثبات حسّه، واضطرابه على نفسه، حتى أمر به فنقل إلى القهندز. وألزم الأطباء المثابرة عليه طمعا في انتعاشه، فاستصعب داؤه على الدواء، وقضى الله على عمره بالانقضاء، فمضى لسبيله عظيم القدر والخطر، كريم الورد والصدر، عديم المثل، في سعة الرحب، فقيد النظير في الفضل الغزير، لم يرو في كتب الأولين أن أحدا من الوزراء اتسعت همته لمشاطرته على مروءته، ومنازعته فضل أفضاله وفتوته، سماحة كالغيث يقذف بالوبل، أو الريح تعصف بالرمل، وسياسة خفتت لها جنادب الليل، وغصّت بها مشاعب السيل.

وأنشدني أبو جعفر البّحاثي[2] لنفسه فيه مرثية:

لهفي عليك أبا الحسين عينا رمتك بكل عين

جرّعتني غصص الجوى وأريتني يوم الحسين

ولبعضهم فيه وقد زار قبره في جماعة من أصدقائه:

مرّ على قبرك إخوانكا وكلهم قد هاله شانكا

---

(١) انظر: ارتشاف الضرب ٣٨٧/٣.

(٢) البحاثي: (..- ٤٦٣ هـ =..- ١٠٧١ م) هو محمد بن إسحاق بن علي، أبو جعفر الزوزني البحاثي: أديب، من الشعراء، من أهل زوزن (بين هراة ونيسابور) ووفاته بغزنة. كان ينسخ الكتب.

له ديوان (شعر) في تسع مجلدات، و (شرح ديوان البحتري) و (نحو القلوب). نسبته إلى جد له اسمه (بحاث).

انظر: الأعلام ٢٩/٦، وإرشاد الأريب ٦/ ٤٠٨ واللباب ١/ ٩٩ والجواهر المضية ٢/ ٣١ ونعته بالقاضي.

فلـــم يزيـــدوك علـــى قـــولهم عـــزّ علـــى العليـــاء فقـــدانكا

وقد كان حسام الدولة وشمس المعالي وفخر الدولة بنيسابور على انتظار معونته، واستفاضة ما أسفر لهم من عدّته، فحدّثني أبو نصر العتبى خالي رحمة الله عليه، وكان على البريد بنيسابور، قال: دعاني أبو العباس تاش آخر نهار يوم، فلما وصلت إليه وجدت الثلاثة يتناضلون بينهم الآراء في معاودة الحرب، واستئناف معالجة الخطب، فخلطوني بأنفسهم فيما تداولوه، وسألوني أن أنهي إلى ذلك الشيخ صدق انتظارهم لمعونته، واستعدادهم للبدار إلى أمره. وأقبل عليّ شمس المعالي من بينهم، فقال:

اكتب إلى ذلك الصدر بأن الحروب لم تزل بين الرجال سجالا، وأنها تستصعب مرة وتصحب أخرى، والحازم من يستفتح بالجدّ باب الظفر، فالنّجح يتلف بين العجز والضجر، واضرب له أبيات المتنبي[1] مثلا[2]: [الوافر]

إذا مـــا كنـــت فـــي أمـــر مـــروم فـــلا تقنـــع بمـــا دون النجـــوم
يـــرى الجبنـــاء أن العجـــز حـــزم وتلـــك طبيعـــة الوغـــد اللئـــيم
فطعـــم المـــوت فـــي أمـــر حقيـــر كطعـــم المـــوت فـــي أمـــر عظـــيم

---

(١) المُتَنَبّي: (٣٠٣ - ٣٥٤ هـ / ٩١٥ - ٩٦٥ م). هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي الكندي، أبو الطيب.

الشاعر الحكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي، له الأمثال السائرة والحكم البالغة المعاني المبتكرة. ولد بالكوفة في محلة تسمى كندة وإليها نسبته، ونشأ بالشام، ثم تنقل في البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس.

قال الشعر صبياً، وتنبأ في بادية السماوة (بين الكوفة والشام) فتبعه كثيرون، وقبل أن يستفحل أمره خرج إليه لؤلؤ أمير حمص ونائب الإخشيد فأسره وسجنه حتى تاب ورجع عن دعواه. وفد على سيف الدولة ابن حمدان صاحب حلب فمدحه وحظي عنده. ومضى إلى مصر فمدح كافور الإخشيدي وطلب منه أن يوليه، فلم يوله كافور، فغضب أبو الطيب وانصرف يهجوه. قصد العراق وفارس، فمدح عضد الدولة ابن بويه الديلمي في شيراز.

عاد يريد بغداد فالكوفة، فعرض له فاتك بن أبي جهل الأسدي في الطريق بجماعة من أصحابه، ومع المتنبي جماعة أيضاً، فاقتتل الفريقان، فقتل أبو الطيب وابنه محسّد وغلامه مفلح بالنعمانية بالقرب من دير العاقول في الجانب الغربي من سواد بغداد. وفاتك هذا هو خال ضبة بن يزيد الأسدي العيني، الذي هجاه المتنبي بقصيدته البائية المعروفة، وهي من سقطات المتنبي.

انظر: (نزهة الالباء:٢٢٥ - ٢٥، ووفيات الأعيان: ١/ ١٢٠ - ١٢٥).

(٢) انظر الديوان ٤/ ١١٩ - ١٢٠ بشرح العكبري.

قال: فاستدللت يومئذ بقوله على فضله.

وورد عليهم بعقب ذلك نعي أبي الحسين، فأوسعهم وجوما، ونثر عليهم من التدبير ما كان منظوما. وورد على أبي العباس تاش كتاب السلطان في استعادته إلى الباب لتدارك ما اختلّ، وتلافي ما انحلّ واعتلّ، فاغتنم البدار، وسار حتى ورد بخارى، فرتّب الأمور، ونظم المنثور، وتتبّع الجناة على أبي الحسين العتبي، فطبقهم بالقتل والتدمير، وعمهم بالنفي والتسيير.

واستوزر أبو الحسن المزني فبعل بالتدبير، ووجل في التقديم والتأخير، لتهافت الأعمال، واستبداد آخرين عليه بالإيراد والإصدار.

وقد كان أبو الحسن بن سيمجور انكفأ عن سجستان إلى خراسان من غير أمر صدر إليه استشرافا لنجوم الفتن وانتقاض الأعمال بها، بتراجع العسكر عن باب جرجان، وتشوفا لنفاق سوقه فيما بينها. فكتب أبو الحسن إليه مقبحا عليه فعله، وناعيا إليه عقله، وسامه أن يعدل إلى قهستان متدرّعا، وعن ملابسة الأعمال متورعا، وأن يسلّم أبناء الدولة الذين هم في جملته وتحت رايته، إلى ابنه أبي علي، على أن يعاود سجستان فيكفي أمرها، ويلمّ شعثها، ويرأب صدعها. وجعل باذغيس وكنج رستاق برسمه، على أن يزاد في توليته وحبائه، متى عرف في الطاعة صدق نيته وغنائه.

ولما استقر أبو العباس تاش ببخارى، اغتنم أبو علي خلوّ خراسان عنه وعن المناضلين دونه، فراسل فائقا يريده على مخالفته، والجهار بمنابذته، وترك الرضا بزعامته، فوجده سمح القياد إلى المراد، طوع الزمام إلى العناد. واجتمعا بنيسابور على توكيد العقود، وإمرار المواثيق والعهود.

وبدأ أبو علي بمصادرة عمال أبي العباس تاش بنيسابور، ومطالبتهم بما كان تحت أيديهم من أمواله، وارتفاعات أعماله، ثم نهض إلى مرو سدّا دون الولايات، وحجابا دون الأموال والارتفاعات، حتى اضطر حسام الدولة إلى مناهضتهما، وكفاية ما أهمّ من أمرهما، ومداواة ما استفحل من شرّهما، واستفتح الخزائن عن ذخائر الأموال، ونفائس الأسلحة والأثقال. وبرز من بخارى إلى آمل الشط، فخيم على طرف الرمل، وتردّد السفراء فيما بين الفريقين على حفظ نظام الألفة، واستبقاء جمال الدولة، وإخماد

جمرات الفتنة. فوقع الاتفاق على أن تكون نيسابور لتاش، وبلخ لفائق، وهراة لأبي علي، وتفرق كل منهم على رئاس عمله.

وللخوارزمي[1] في أبي علي عند حصوله بهراة:

تهنّأ بالأمير هراة إذ قد علا عن أن يهنّأ عن هراها
وكيف تهنّأ الدنيا جميعا بناحية من الدنيا احتواها

وانحدر أبو العباس تاش إلى مرو، وقد كان قبل فصوله من بخارى توصل إلى عزل المزني عن الوزارة بأبي محمد عبد الرحمن الفارسي المتولي كان لأمور كذخذائيته لما تبيّنه من ميله إلى أبي علي وفائق، وادّهانه في أمرهما.

فلما استقر هو بمرو، صرف عبد الرحمن بعبد الله بن عزير وهو المعروف بتعنت آل عتبة ومشاحنتهم، ونصب العداوة لهم ولصنائعهم، وحرق الأرّم كيادا عليهم. فبدأ بصرف أبي العباس تاش عن قيادة الجيوش، ونقلها إلى أبي الحسن بن سيمجور مضادة لأبي الحسين العتبي في تدبيره، وتداركا بزعمه لما وهى من أصل تقديره وتقريره، وأمر بالكتاب عن السلطان إليه في نقل العمل عنه، وتعويضه كورتي: نسا وأبيورد منه، والإيعاز إليه بالامتداد إليهما. والاقتناع بهما، وحذف عنه خطاب الزعامة، واقتصر على ما كان موسوما به من الحجابة.

فلما وصل الكتاب إليه، أحسّ بأمارة الشر، ودلالة الختل والختر، وعلم أن ذلك فاتحة الخطب عليه، والتشفي منه، والوضع من قدره، والثّلم في جاهه ومحلّه، فاستحضر وجوه القوّاد، وأعيان الحشم والأجناد، وعرض عليهم الكتاب، وعرّفهم دأبه وديدنه في طاعة سلطانه ومناصحته، والإخلاص لدولته، والذّب عن حوزته، والشكر لما وسعه قديما وحديثا من نعمته، وإقباله مدة مصاحبتهم إياه عليهم بحسن رعايته، ورفق زعامته، وإيالته نيابة عنهم في تنجّز أوطارهم، وتزيين مساعيهم وآثارهم، ومواساة

---

(١) أبو بكر الخوارزمي: محمد بن العباس الخوارزمي الطبرخزي، من أئمة الكتاب، الشعراء، العلماء، سكن أسفار عدّة في حلب، وانتقل إلى نيسابور، واتصل بالصاحب بن عباد، وتوفي بها سنة (٣٨٣) وقِيلَ (٣٩٣)، له ديوان شعر ورسائل.

ترجمته في: وفيات الأعيان: ٦٦٢/١ - ٦٦٣، ويتيمة الدهر: ٢٢٣/٤ - ٢٧٧، ومعجم المؤلفين: ٣٨٠/٣.

لهم بما اتسعت له يده من خاص ماله، وحاضر ملكه، وأنه يومه ذلك في نفسه ومهجته مقصود، وعن باب مالكه وولي نعمته مردود. وأنه لا منع من جهته لأحد منهم عن رأيه واختياره في معاودة بخارى أو اللحاق بأي جانب شاء، فليختر كل منهم ما أحب غير منازع في قصده، ولا مدافع عن وجهه. فاستمهلوه ريثما يعلمون من ورائهم من أهل العسكر صورة الحال، ويعرفون ما عندهم من الرأي في المقام أو الارتحال.

وتجمعوا بعد ذلك دفعات متباعدين في الاختيار مرة، ومتقاربين أخرى، إلى أن اتفقت كلمتهم على موافقته، وترك مفارقته، والإذعان لرئاسته، ومرافقته على ما يلقاهم الزمان به من سلم وحرب، وذلول وصعب، وسهل وحزن، وسرور وحزن، وخوف وأمن. وكاتبوا إلى بخارى سائلين رد الزعامة عليه رعاية لحق خدمتهم، وتحكيما للكرم في تحقيق مسألتهم، واستبقاء لوجوههم بماء طاعتهم، فأبى ابن عزير أن يقع لهم نجاح، أو يستمر بين أولياء الدولة صلاح، وكتب إليهم يمنيهم الزور، ويريهم الغرور، سرابا بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً. وسامهم معاودة الحضرة تطميعا لهم، وتنفيقا للنفاق عليهم، فلما عرفوا صورة الجواب، ازدادوا بصيرة في طاعة أبي العباس تاش، ونفاذا في خدمته، وتصرفا بتصاريفه، وبخوعا له في وجوه تكاليفه.

ذكر انقلاب فخر الدولة إلى ولايته وما جرى بعد ذلك بينه وبين حسام الدولة أبي العباس تاش من المكاتبة والتعاون إلى آخر عمره

اتفق بعد معاودة أبي العباس تاش إلى بخارى أن قضى مؤيد الدولة نحبه، ولقي ربه. وقبل انقضاء الحرب التي كانت بينهما، ما دهاه الخبر بموت عضد الدولة أخيه، فتماسك عن إظهار المصاب أناة بالخطب الذي كان أمامه حتى يكفيه بحفيظته المرّة، ويقضيه بعزيمته المستمرة. وتشاور أولياء تلك الدولة فيمن ينتصب منصبه، ويسدّ في الرئاسة مسدّه، فأشار الصاحب إسماعيل بن عبّاد إلى فخر الدولة إذ لم يكن في ذلك البيت أحق منه بالإمارة، وأتم استقلالا بأعباء الرئاسة والسياسة سنا وكفاية منه، فطيّروا البريد إليه في البدار إلى ما أورثه الله تعالى من عقيلة الملك، وذخيرة الملك، عفوا لا منّة لأحد عليه، ولا حقّ لإنسان يختم لسانه بشكره. واستخلفوا أخاه أبا العباس خسرو فيروز بن ركن الدولة على ضم المنتشر، وتقويم المتأوّد إلى أن يلحق بهم، فيتولى تدبير ما يليه، ويتولى عنه تحرير ما ينشئه برأيه ويمليه.

وبادر فخر الدولة من نيسابور إلى جرجان تطاير البرق بين جناحي الأفق، فاستقبله العسكر خاضعين طائعين، وعلى صدق الممالأة والموالاة مبايعين. وتبوأ مقعده من سرير الملك وارثا ما أوصى له به أبوه، وسائر ما كان يدبره أخوه، كذلك يؤتي الله الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء وهو الفعّال لما يريد. ولقد أحسن أبو بكر الخوارزمي حيث يقول في قصيدة يرثي فيها مؤيد الدولة ويعزّي ويهنىء فخر الدولة[1]: [الطويل]

رزئت أخا لو خيّر المجد في أخ ... من الناس طرا ما عداه ولا استثنى
وقد جاءت الدنيا إليك كما ترى ... طفيلية قد جاوبت قبل أن تدعى
طبت بك عشقا وهي معشوقة الورى ... فقد أصبحت قيسا وعهدي بها ليلى
ولما رأت خطّابها فركتهم ... ولم ترض إلا زوجها الأول الأولى
ولم تتساهل في الكفىء ولم تقل ... رضيت إذا ما لم تكن إبل معزى

---

(١) انظر: يتيمة الدهر ٤/٢٦٠.

علـى أنهـا كانـت جفتـك تـدللا فخليتها حتى أتت تطلب الرجعى

وأنشدت لأبي الفرج بن ميسرة أبياتًا من قصيدة يرثي بها عضد الدولة[1]: [الوافر]

ولـو قبـل الفـداء لكـان يفـدى وإن جـلّ المصـاب عـن التفـادي
ولكـن المنـون لهـا عيـون تكـدّ لحاظهـا فـي الانتقـاد
فقـل للـدهر أنـت أصبت فـالبس برغمـك دوننـا ثـوبي حـداد
إذا قـدّمت خاتمـة الرزايـا فقـد عرّضـت سـوقك للكسـاد

وكتب فخر الدولة إلى أبي العباس تاش بذكر ما أصاره الله إليه، وأعلقه بيديه، وأن ذلك كله موقوف على أحكام مشاركته، ومصروف إلى أقسام إرادته، وأنه لم يرتح لاستجابة أيامه النافرة، وأعتاب دولته العاتبة المغايرة، ارتياحه لما تمكن به من معاضدته على مصالح أحواله، ومرافدته على مناجح آماله، شكرا لما كان مهّده من مقامه قبله، وقدّمه من جهده في إيثار الخير به، وارتياد النّجح له. فأجابه عنه مهنئا بما أتاحه الله له من كريم صنعه، وزفّه إليه من هديّ ملكه، وشاكرا له ما أوجبه ورآه، وشاكيا إليه ما رهقه ودهاه. فكتب إليه بأنه سهيمه فيما يليه، وقسيمه على ما يحويه، وأن أمره ممتثل في كل ما يرومه وينتحيه، فليبن أمره على ما يلتفت عليه اقتراحه منتظرا لما تقتضيه، شركة المفاوضة من التسمح بالملك والمال، وتسريب الرجال في أعقاب الرجال.

وكان قد أنهض أبا سعيد الشبيبي وهو الملقب بشيخ الدولتين إلى ما قبل فخر الدولة رسولا، فصرفه في العاجل بقدر من المال، وزهاء ألف فارس من سرعان العرب والأتراك، فورد نيسابور، وانضم إليه أبو محمد عبد الله بن عبد الرزاق مواليا لأبي العباس تاش على أبي الحسن بن سيمجور، فاجتمعا على التعاضد، واتفقا على التكاتف والترافد.

وانحدر تاش إلى نيسابور فسبقه إليها أبو الحسن، وانحاز المقيمون بها انتظارا لوصوله، في سواد خيوله. ولحق بهم فصارت الأيدي واحدة، والقلوب على الإخلاص متعاقدة. وقصد باب نيسابور من جانبها الغربي، فخيّم بظاهرها، وناوش أبا الحسن الحرب أياما عدّة، وهو متحصن بالبلد ودروبه، ومحتجر بضيق مداخله وسدوده.

---

(١) انظر: يتيمة الدهر ٢/٣٢٩.

ولحق بأبي العباس تاش زهاء ألفي رجل من خلّص الديلم ونخب الأتراك، يقودهم أبو العباس فيروزان بن الحسن في كبار القواد ممن يعذمون على الزّبر، ويدخلون ولو خرت الإبر. فلما أحسّ أبو الحسن بن سيمجور بإناختهم، وعلم قوّتهم على حرب المضيق، وإعجازهم بأطراف الزانات والمزاريق، اتخذ الليل جملا، وترك البلد هملا، وسار يريد قهستان، ساترا عورة الانهزام بلباس الظلام.

وسمع عسكر أبي العباس بإجفالهم، فشدّوا على آثارهم وأثقالهم، وأصابوا منهم غنائم موفورة، وأنفالا غير محصورة. ودخل أبو العباس تاش نيسابور، وجاوزها إلى المعسكر بظاهرها مما يلي الجانب الشرقي حميد الظفر، رضي السعي والأثر. وأنشدني أبو منصور الثعالبي[1] لنفسه في تلك الوقعة[2]: [الكامل]

قـل للـذي أنـا فـي هـواه خاشـي ... صـاد الفـؤاد بصـدغه الجمّـاش

---

(١) أبو منصور الثعالبي (٣٥٠ - ٤٢٩ هـ، ٩٦١ - ١٠٣٨م). عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي، أديب ولغوي وناقد وصاحب الكتاب الشهير يتيمة الدهر. وُلِد في نيسابور. وهو غير الثعالبي أبو زيد عبد الرحمن.

كان فرّاءً يخيط جلود الثعالب فنُسب إلى صناعته، ثم انتقل من حياكة الفراء إلى دراسة اللغة والأدب والتاريخ فنبغ واشتهر. قال الباخرزي عنه: هو جاحظ نيسابور، وأجمع من ترجموا له على أنه كان نابغة عصره في الأدب نظمًا ونثرًا، وكان قبلة أنظار المؤلفين بعده، فاحتذى حذوه وسار على نهجه جماعة في شرق العالم الإسلامي وغربه.

وهو من الذين أسهموا في ازدهار نهضة القرن الرابع الهجري أدبيًا، حيث قدم للعربية عددًا كبيرًا من المؤلفات والمصنفات التي تنوعت لتشمل أغراضًا مختلفة في الآداب، واللغة والفكر.

وقد خشي الثعالبي من أن يكون للشعراء السابقين على عصره فضل في الأدب والشعر وفنونه ولا يكون لشعراء عصره من يتصدَّى لمثل ذلك، فندب نفسه لهذا، وظهرت براعته في كتابه يتيمة الدهر، وغايته من هذا الكتاب خدمة اللغة العربية عن طريق الشعر الذي يرى فيه فضلاً وعلمًا. ولم يقتصر الثعالبي فيه على ترجمة خالصة للشعراء والاستشهاد بالنصوص الشعرية، بل نراه يورد آراء نقدية قيمة وتعليلات أدبية ممتعة تنم عن ذوق أدبي رفيع، كما يعمد في كثير من الأحيان إلى المقارنة والموازنة بين من يترجم له وبين غيره من الشعراء في الفن الشعري، ويكشف ببراعة عن مدى تأثر الشاعر بغيره من السابقين والمعاصرين. ومن أهم الآثار التي خلّفها الثعالبي بعد كتابه يتيمة الدهر: العقد النفيس في نزهة الجليس؛ فقه اللغة وسر العربية، وغيرها.

ترجمته في: وفيات الأعيان: ١٧٨/٣ - ١٨٠، ونزهة الألباء: ٣٦٥.

(٢) انظر: الديوان ١١٠/١.

صـدغ يـرى عنـد الريـاح كأنـه قلـب ابـن سـيمجور أحـس بتـاش

وله فيه:

إن الشـتاء مضـى بقـبح فاشـي وأتـى الربيـع لنـا بحسـن ريـاش

ومضى ابـن سـيمجور بقـبح فعالـه وانتـاش أبنـاء الكـرام بتـاش

ولزم تاش مناخه ذلك يواصل الكتب إلى بخارى في الاستمالة والاستقالة، والضمان لآنف الطاعة، وعرض النفس والملك بلسان الضراعة، فلجّت بابن عزير صلابته في عداوة آل عتبة دون مغايظته ومعاداته ومعاندته، وطفق ينفق على الأمير الرضا ووالدته التي كانت كافلة بالملك، أن تاش معتصم بالديلم، وقاصد قصد الإجحاف بالدولة، وأنه متى أرخي من عنانه فيما يستدعيه، وجب التعزّي عنها والتكبير عليها، حتى ظنّا أن الأمر كما زعم، فوكلا التدبير إليه، وجعلا زمام الخير والشرّ بيديه. وقد كنت أروي لصديق لي في تلك الأيام بيتين لابن المعتز[1] سمعتهما في الشباب، وهما[2]: [الكامل]

شـيئان لـو بكـت الـدماء عليهمـا عينـاي حتـى تؤذنـا بـذهاب

لـم تبلغـا المعشـار مـن حقيهمـا فقـد الشـباب وفرقـة الأحبـاب

فقال: إن الأليق بحكم الوقت والحال بيتان في وزنهما وصياغتهما للحسين بن علي المروروذي وهما[3]: [الكامل]

شـيئان يعجـز ذو الرياضـة عنهمـا رأي النسـاء وإمـرة الصـبيان

---

(١) ابن المُعتَز: (٢٤٧ - ٢٩٦ هـ / ٨٦١ - ٩٠٨ م): وهو عبد الله بن محمد المعتز بالله ابن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد العباسي، أبو العباس.

الشاعر المبدع، خليفة يوم وليلة. ولد في بغداد، وأولع بالأدب، فكان يقصد فصحاء الأعراب ويأخذ عنهم.

آلت الخلافة في أيامه إلى المقتدر العباسي، واستصغره القواد فخلعوه، وأقبلو على ابن المعتز، فلقبوه (المرتضى بالله)، وبايعوه للخلافة، فأقام يوماً وليلة، ووثب عليه غلمان المقتدر فخلعوه، وعاد المقتدر، فقبض عليه وسلمه إلى خادم له اسمه مؤنس، فخنقه. وللشعراء مراث كثيرة فيه. ترجمته في: مآثر الأناقة: ٢٧٦/١.

(٢) هذان البيتان ينسبان للإمام علي بن أبي طالب، وهما في ديوانه ٣٦/١.

(٣) انظر: يتيمة الدهر ٩٧/٤، وأبجد العلوم ٣٤٦/٢.

أمـا النسـاء فمـيلهن إلـى الهـوى وأخـو الصّـبا يجـري بغيـر عنـان

قلت: فأنصف لعمري فيما وصف وحكم حكما يشهد به العيان، ويسجّل بصحته الامتحان، وأبى الله أن تكون ظئر في شفقة الأم، وخال بمنزلة العم، وعسيف بمثابة الصاحب، ووزير بمحل الملك الغالب، المستبد برأيه الصائب، وفكره الثاقب.

وأهمل أبو العباس تاش ما أهمه من أمر أبي الحسن بن سيمجور، وقصده مداراة لولاة التدبير ببخارى واستمالة لهم، واستيناء واستذراء بهم، وإمساكا للوحشة من الازدياد، وصيانة للقرح من الإمداد، وهم فيما بينهم يهتبلون فرصة الرخاء، ويغتنمون فسحة الإمهال والإمهاء، ويقبلون على مواصلة الاحتشاد والاستعداد، ومداومة الاستمداد والاستنجاد.

وكتب أبو الحسن بن سيمجور إلى أبي الفوارس بن عضد الدولة بفارس، فأمدّه بألفي فارس من نخب الأعراب، وانضم إليه فائق في خواص غلمانه وسائر من استجاشهم من أطراف خراسان، وكرّوا بأجمعهم على أبي العباس تاش في خيول غصّ بها عرض الجبوب، وضاق عن ضمها أضلاع الشمال والجنوب، وفيالق تحاكي رمال الفيافي، وتضاهي نجوم السماء أهبة وعددا، وتشابه قطرات البحار الزواخر مددا. ترجف الجبال الشوامخ تحت أقدامهم، وتكسع الأساود السود عند جراءتهم على الموت الذريع وإقدامهم. فلما قاربوا نيسابور، خالفوا معسكره إلى البلد لا متلاكه عليه، ومساورته الحرب عن ظهر منعة واقتدار، وحال نجدة واستظهار، فعارضهم أبو العباس تاش في مسيرهم بعبد الله بن عبد الرزاق وأبي سعيد الشبيبي وخواص غلمانه، وناوشهم الحرب من حيث متع النهار إلى أن صارت كعين الأحول. وظلت حملاته تحطمهم حطما، وتوسع أركانهم هدّا وهدما. وكانت المجاعة ما بين سرخس إلى مقامهم ذاك قد بلغت مبلغا أحرج صدورهم، وأقنع بالإجفال جمهورهم، إيثارا لفسحة المضطرب، والخلاص من ضيق المعترك.

وحمل أبو العباس تاش آخر النهار حملة قدّرها خاتمة القتال، وآخرة النزال، فتلقاها أبو الحسن وأبو علي ابنه بشكائم قوية، وعزائم في الثبات صريّة. وردّوا مطلقات الأعنّة، بمشرعات الأسنّة، ووردوا مشرعات الزحوف بمرهفات السيوف. فلما انقلب

إلى مقامه وقد تفرّق في تلك الحملة عنه سواد حماته، وحفظة راياته، شدّوا الحملة عليه دفعة واحدة، فاضطروه إلى الانهزام، وإسلام المقام.

وتداركت الحملات على عسكر الديلم من جانب فائق حتى تزعزعت صفوفهم، واضطربت جموعهم، فتداعوا الأمان من قرع السيوف خلا من أنجته صهوات الخيول، فجمعوا في بيت الأسار، على حال الذل والصغار، ثم حملوا إلى بخارى على الأجمال في الجواليق آية ونكالا، وتشفيا ممن ساقهم إلى خراسان أرسالا. فاستقبلهم المخانيث بالدفوف والمغازل، بدلا عن السيوف والعوامل، وأمر بهم إلى محابس القهندز إلى أن اقتسمتهم الأيام بين ممات ونجاة.

obeikandi.com

ذكر انتقال أبي العباس تاش إلى جرجان ومقام أبي الحسن بن سيمجور بنيسابور على قيادة الجيوش

وانحدر أبو العباس تاش إلى جرجان، ففصل عنها فخر الدولة متوجها نحو الرّي، وأخلاها له ولأهل عسكره، وترك دار الإمارة محفوفة بالفرش الفاخرة، والخزائن العامرة، والأهب الوافرة، حتى المطابخ بما فيها من الآلات الصفرية، والأواني الذهبية والفضية. وتقدّم بأن تسلم إليه خزانة كان قد أعدّها للحمل إليه قبل الكشفة مشتملة على خمسين ألف دينار، وألفي ألف درهم، وخمسمائة تخت من ألوان الثياب، إلى غيرها من عتاق الأفراس، وجياد المراكب والدواب، وأعداد الأسلحة والوقايات، من تجافيف ومغافر ودروع وجواشن وترسة وزانات، أكثرها مغشي الظهور والنصب بحلي الفضة والذهب. وسوّغ له دخل جرجان ودهستان، وآبسكون واستراباذ إلا قدرا كان مصروفا إلى عمارة القلاع، وأرزاق مستحفظيها من الخواص، فأمر أبو العباس تاش بتفرقة تلك المبارّ والأموال فيمن صحبه من القواد، وطبقات الأجناد، حتى جبر كسرهم، وقوّى أسرهم، وواصل لهم الإقامات والأطماع حتى ارتاشت أحوالهم، وخصبت رحالهم، فصاروا بجرجان أحسن منهم بخراسان حالا، وأرغد عيشة وأنعم بالا.

وجعل فخر الدولة يتابع الحمول إليه من طبرستان زيادة في تأثيل حاله، واستبقاء لنظم جنوده ورجاله، فعل من لا ينفس على أخيه، بنفائس ما يحويه، ولا يضن على صديقه، بجليل ملكه ودقيقه. وقد كان الصاحب يستسرف ما يوجبه له من الإحسان والمواساة، ومواصلة الصلات والكرامات، ومن قبل ما نصح له في استعراض خراسان برجاله، مخالفة لسلفه فيما اختاروه من مسالمتها، واغتنام السلامة منها، فقال له ذات يوم: إن حقوق أبي العباس عليّ حقوق لو نزلت معها عن جميع ما أفاء الله عليّ من ثمرات هذا الملك حتى أحلّ له عروة هذا القميص، لوجدتني في أدنى درجات المكافأة، وأيسر مراتب المبرّات. وأشار إلى واحدة تكفيه أمارة على ما أوجبه له أيام مقامه قبله اشفاقا على مهجته، وحرصا على محبته، وذبّا عنه في حال غربته، وهي إن أخويه عضد الدولة ومؤيدها أرسلا إليه يستردّانه على أموال عظيمة تحمل إلى خراسان في كل سنة للسلطان أولا، وله ثانيا، مشفوعة بمجلوبات العراق، من وشي الثياب، وفره العتاق. وأغليا في الاستيام والتطميع، حتى لم يبق للردّ مجال، ولا للسان العذر مقال.

وأتاني خبر الرسالة فاستظلمت ضوء النهار، واستخشنت جانب القرار، وقمت من الحياة على شفا جرف هار، إذ لم يكن في الهرب مطمع، ولا في قوس الرجاء منزع.

وبت بليلة أنقد، أرى الشرّ كأن قد، إلى أن أصبحت وقواي متخاذلة، وأركاني متهافتة، خوف الإذن بالداء العياء، والداهية الدهياء، فأتاني حاجبه بعد فراغه من الإذن، داعيا وآدبا. فلم أدر أداع هو أم ناع؟ وآدب هو أم نادب؟ وطالع ضيافة أم طارق آفة؟ وخمنّت في القري كناية عن المحذور، وتورية دون القدر المقدور. فركبت إليه، وسير عناني أحصف مرة من بناني عليه، إلى أن حصلت في مجلسه، فصادفت من حسن القيام وقوة الالتزام، وفرط الإكرام والإعظام، وفضل البر والإيناس، ونصرة الرجاء على اليأس، ما لم أكن عهدته فيما مضى من مجالسه ومآنسه. ومازال يرقيني ببشره، ويسحرني بلطفه وبرّه، إلى أن ثابت نفسي إليّ، وانحلّت عقدة الخوف عليّ، وتطاير الهمّ عني شعاعا، وذهب سوء الظن جفاء. ثم ناولني الرقاع الواردة عليه، فنشرتها عن أنياب الأراقم، وأقداح العلاقم، وحمات العقارب، على الرسم المعتاد من كيد الأقارب. ثم أقبل عليّ، فقال: كنت على أن أكتم الأمير صورة ما ورد، صيانة لقلبه عن نوازع الظنون والأوهام، لكني فكرت في حكم الحال التي تجمعني وإياه، فرأيت اطلاعه طلع ما كتب، والإفضاء إليه بحقيقة ما طلب، أملك لكونه، وأوقع لطائره، وأنفى لخلاج الشك عن خاطره. وأقسم بجميع ما يغلظ به أيمان البيعة، أنه لا يعدل خراج العراق بأسره، على نفاسة قدره، بشعرة من بدنه، ولا بزئبر من بزّته، وأن جميع ما أملكه من صامت وناطق، وقاعد وقائم، حتى فصّ هذا الخاتم، وزرّ هذا القرطق، وقاية لمهجته، ووقف على مصلحته، ومعدّ لدرء الحوادث عن ساحته، ومبتذل في الانتقام له، ممن نافسه في ملكه، ونازعه حق إرثه، حتى يأذن الله تعالى في ردّه إلي بيته قرير العين، منشرح الصدر، صاعد النجم، ماضي الحكم على الخصم.

أيستحق من يسمح بمثل هذه الأكرومة طوعا وطبعا لا عن رغبة في رغيبة، ولا ميل إلى نيل، ولا تطلّع إلى وجه مطمع، أن يتغافل عن معونته وإرفاده، ويتجاهل دون ما ينجذب إليه زمام مراده؟! لا ورب الكعبة، وحق ركن الدولة. لا يعرف الناس نسيان هذا الحق العظيم، وقد استسهلت طريق المكافآت، وأصبت عون الله على حسن المجازاة،

على أن الفضل له بسبقي إلى البرّ وإن جهدت في المقابلة، وشددت إلى الغاية في المساجلة.

فتعجب الحاضرون من هذا الكلام، والكرم الذي عز سماع مثله في سالف الأيام.

واحتشد الصاحب من بعد لمصالح أبي العباس تاش مناصحة لصاحبه، وكفالة عنه بما يقضي الحق عليه، ويقيد شرف الوفاء له. وبقي أبو العباس تاش بجرجان ثلاث سنين نابي الجنب عن القرار، جافي الجفن دون الغرار، شوقا إلى خدمة سلطانه، وحرصا على عرفان حق اصطناعه وإحسانه، وإشفاقا من تأويل حسّاده في انتباذه عن خراسان إنكاره حق الولاء، ونزعه عن رقبته طوق الطاعة والوفاء. وجلّ همّه معاودة بخارى لا ستئناف الخدمة، والسلامة من المذمة.

وأرسل أبا سعيد الشبيبي إلى فخر الدولة في الاستعانة على معاودة خراسان، فجهّز له أسفار بن كردويه، وعدّة من أعيان القواد في زهاء ألفي رجل من خلّص الديلم، وكتب إلى نصر بن الحسن بن فيروزان وهو بقومس بصلة جناحهم، والزعامة عليهم في إيرادهم وإصدارهم، والصدر في ذلك كله عن رأي حسام الدولة ومثاله، والتصرف بتصاريفه في حالتي حلّه وترحاله، وتارتي سلمه وقتاله. وحمل في صحبته من المال لإقامات عسكره ضعف ما كان خلفه عليه عند فصوله من جرجان. فسار أبو سعيد إلى قومس، فانتدب نصر لقراه وقري القواد في صحبته، كما قرى تميم ضيفها وجارها ابن الحضرمي حذو النعل بالنعل. وذلك أنه أمر به في صحن داره فأخذته السيوف يمنة ويسرة، حتى برد. وعمد إلى آخرين فحبسهم في سرب وأوقد الفحم عليهم وسدّ منافذ السّرب دونهم، حتى اختنقوا بين حرّ المحبس وعدم المتنفس. وافتات بتلك الأموال المحمولة والدواب المقودة راضيا بسمة الغدر، وقاضيا على نفسه بالخزي مدى الدهر. وانفلّ الباقون نحو الري لا يلوي واحد منهم على آخر إلى أن وردوها، فقرروا الصورة، وقرأوا الصحيفة المنشورة، فورد من ذلك على فخر الدولة ما أطار واقعه، وهاج وادعه. وعلى حسام الدولة أبي العباس تاش ما أقلقه فأكمده، وأضعف عن كل شيء قلبه ويده.

وكتب إليه فخر الدولة بذكر ما رآه من تجهيز الجيوش إليه، ويستحدره إلى استراباذ، ليصير المقصود محصورا بين العسكرين، ومضغوطا من كلا الجانبين، إلى أن

يأذن الله فيه بالبوار، أو الانتباذ إلى غيرها من الديار. فانحدر أبو العباس تاش إلى استراباذ، وخيّم بهزارجان، فأخذ نصرا ما قدم وحدث، وما مرّ وخبث.

ورأى الحين قد فغر فاه، والسيوف تطلب وجهه وقفاه، فلاذ بالاستسلام، وفزع إلى الضراعة والاسترحام. وطفق يكتب في الاعتذار إلى الجانبين بأنه كالعارك حياء مما ارتكبه، وخجلا من عوار ما اكتسبه. وتحمّل بشفاعة حسام الدولة في الاستصفاح عنه، واستقالة ما تخبّط فيه بسوء الاختيار، حتى كتب في بابه بما نفّس من خناقه. وتكرّم فخر الدولة بقبول إنابته، رعاية لحق شيبته وقرابته. وعاد أبو العباس تاش إلى جرجان على أن يستأنف تدبير خراسان.

وكان فخر الدولة قد استوحش من ابن أخيه بهاء الدولة لأحوال أخلّ فيها بحقه، وترخّص معها في المفروض من إجلال قدره ومحله، فناهضه في معظم جيوشه، مزاحما له في أعمال خوزستان ومعه بدر بن حسنويه في جنود الأكراد، أولي البسالة والجلاد. وسار حتى غلب على كورها مدلا بالقوّة السابغة، والنجدة الوافرة.

وأنهض أبا العباس فيروزان بن الحسن نحو البصرة لاستصفائها واستضافتها إلى أخواتها. فلما عبر نهر موسى، استجاش المقيمون بها من عسكر بهاء الدولة أهل البصرة عليهم، فعمد منهم خلق عظيم إلى المسالك بينه وبينهم، فبثقوا سكور الأهواز عليها حتى عميت الطرق، وأعوز المجال والمخترق. وبقي هو ومن معه في مخاضات ووحول سدت عليهم وجوه الاختيار، وطمست دونهم معالم الإقبال والإدبار.

ووافقهم إقبال خيول من الموصل على عوادل الطرق، لمظاهرة المقيمين بالبصرة، فلما أخذتهم أبصار أصحاب أبي العباس فيروزان، ورأوا فيهم شوكة ووفورا، ولّوا على أدبارهم نفورا.

وكان بدر قريبا منهم، فلما رأى الكشفة جاء ممانعا، وثبت بنفسه مدافعا. فأعياه سدّ ما اختلّ، وعقد ما انحلّ، وردّ من أخلّ؛ فاستمرت الهزيمة بهم إلى فخر الدولة وهو بسوق الأهواز، وشكوا إليه ضيق الحال، وتجمعوا على رسمهم للمطالبة بالمال، فغاظه ما ظهر في الأول من عجزهم وخورهم، وما انتشر في الثاني من سوء فعلهم وأثرهم، فانكفأ بهم راجعا إلى همذان على ظاهر هدنة، وقع التغاضي عليه ومنها إلى الري، وذلك في شهور سنة سبع وسبعين وثلثمائة.

وحدث وباء بأرض جرجان خارج عن الحدّ في هذه السنة، فهلك من أصحاب أبي العباس تاش و وجوه قواده، وأعيان رجاله، والمذكورين من عمّاله وكتّابه، وسائر حاشيته وغلمانه خلق عظيم. وعرضت له بأخرة علة صعبة ختمتهم به، فمضى لسبيله رحمه الله.

وقد كان أصحابه أوغروا قلوب أهل جرجان برسوم ذميمة أبدعوها، ومعاملات قبيحة اخترعوها، وأجعال عنيفة أوقعوها. فلما فشا خبر وفاته، صاروا يدا واحدة على أصحابه، فكبسوهم في الدور والحجر، وطلبوهم تحت كل حجر ومدر، وجعلوا القتل جفلى، فانتظم الكبير والصغير، والشريف والمشروف في سلك القتل والتنكيل، والإبادة والتمثيل. وشغل وجوه أهل عسكره دهاء المصيبة عن الفراغ لقمعهم ووقمهم، وإخماد جمرتهم، واستكفاف معرّتهم. واقتضتهم صورة الحال البروز إلى ضاحي البلد، لضبط الأمر، وضم النشر، وإتقان التدبير، في اختيار من يصلح للتأمير؛ فبرزوا إليه. واتفقت كلمتهم على أبي أحمد ابن أخت له، فقدّموه وطالبوه بمال البيعة، فأطلق لهم ما وجد في خزانة الماضي، مضافا إلى ما أمكن تمحّله واحتياله عشرينية واحدة، حتى هدأت فورتهم، وسكنت سورتهم.

وتوالى النفير من البلد بمد أهله أيديهم إلى عورات النساء الخراسانية بغيا وكيادا، فحرّكتهم الحمية للانتقام من أولئك الرعاع والأغتام، وركبوا على سمت بكراباذ لمجاهدتهم. وثار أولئك الأشقياء إليهم متهافتين في الدمار، تهافت الفراش في النار، فلم ينشبوا أن حمل أهل العسكر عليهم حملة واحدة كشفتهم عن رؤوس بلا غلاصم، وأيد بلا معاصم، ونفوس بلا عواصم. وفرشوا أرض ذلك الفضاء، بجثث القتلى متشحطين في الدماء. وضربت الدور والحوانيت بالنفّاطات، وبسطت عليهم الأيدي بالغارات. فجرى عليهم ما لم يجر بعد يزيد بن المهلب مثله نكاية رادعة، وعقوبة وازعة قامعة.

وعندها أرسل مشايخ جرجان وصلحاؤها يطلبون الأمان، ويناشدون الله والإيمان.

فكفوا عن القتال، وانكفئوا إلى الرحال؛ فسكن نابض تلك الفتنة، ووقع طائر الهيج واللوثة. واختلف العسكر في الاختيار، فمال القواد وكبار الغلمان الخاصة إلى خراسان، واستحب الدارية الانقطاع إلى فخر الدولة والاختصاص بخدمته. فكتب الصاحب إليهم

أجمعين بالتوقف ريثما يلحق بهم الأستاذ أبو علي فيطلق لهم أموالهم، ويحقق في الولايات وزيادة الإقامات آمالهم. فحفّزهم حب خراسان عن التوقف، وأعجلهم طول العهد بالأوطان دون التثبت. فساروا على سمت الروغد معاودين إلى نيسابور للاتصال بأبي علي بن سيمجور وهو إذ ذاك صاحب الجيش مكان أبيه، وأقام الباقون من الدارية إلى أن وردها الأستاذ أبو علي، فاستعرضهم وأثبت أساميهم، وأطلق أموالهم، وسيّرهم إلى الري، فأمر فخر الدولة بنقلهم إلى الدار، وتوجيههم على الرسم في أمثالهم بمزيد الإكرام والإيثار، رعاية منه لحق أبي العباس من جانب، واستظهارا بهم من آخر.

وكانت جرجان تموج بالغاغة، وذوي العيث والخرابة ممن قتلوا أهل خراسان، ومثّلوا بهم. فوضع الأستاذ أبو علي الأرصاد لهم، وبثّ العيون عليهم، فقتل ممن حمل منهم يوما واحدا جريدة واحدة زيادة على ثلاثة آلاف رجل صلبا وصبرا، وغيلة ومكرا؛ فتمت بذلك سياسته، واستفاضت هيبته، واستقامت أموره. وصفت جرجان في أيامه ممن ينعق في فساد، أو يحلم بغير استقامة وسداد.